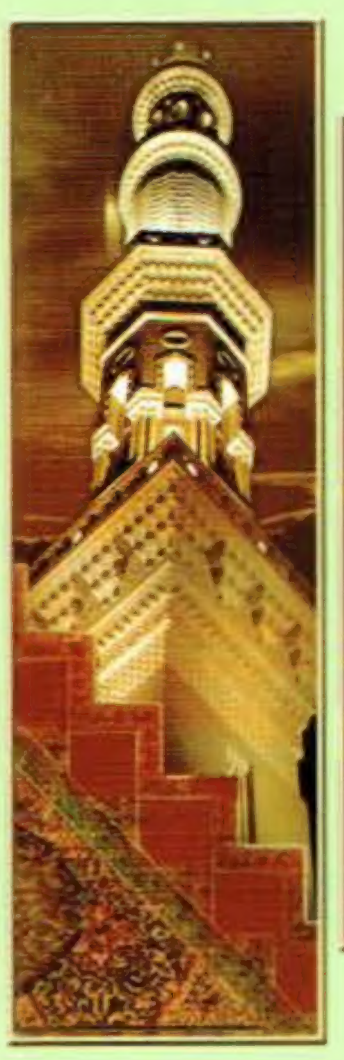
ذوق الصلاة

عند ابن القيم رحمه الله






أ. د / عادل بن عبد الشكور الزرقي

أستاذ الحديث بجامعة الملك سعود

الطبعة العاشرة

دار الحضارة للنشر والتوزيع



ذوق الصلاة

عند ابن القيم

أ.د/ عادل بن عبد الشكور الزرقي

أستاذ الحديث بجامعة الملك سعود

ح دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الزرقي، عادل عبدالشكور عباس
ذوق الصلاة عند ابن القيم - رحمه الله/ عادل عبدالشكور عباس الزرقي
ط ١٠ - الرياض ١٤٤٢هـ
ص ١٤٠؛ ١٤×٢٠سم
ردمك: ٤- ٢٤- ٨٣١٣- ٦٠٣- ٩٧٨
١- الصلاة أ- العنوان
ديوي ٢٥٢,٢ ١٤٤٢/٢١٨٦

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢١٨٦
ردمك: ٤- ٢٤- ٨٣١٣- ٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة العاشرة
١٤٤٢هـ/٢٠٢١م

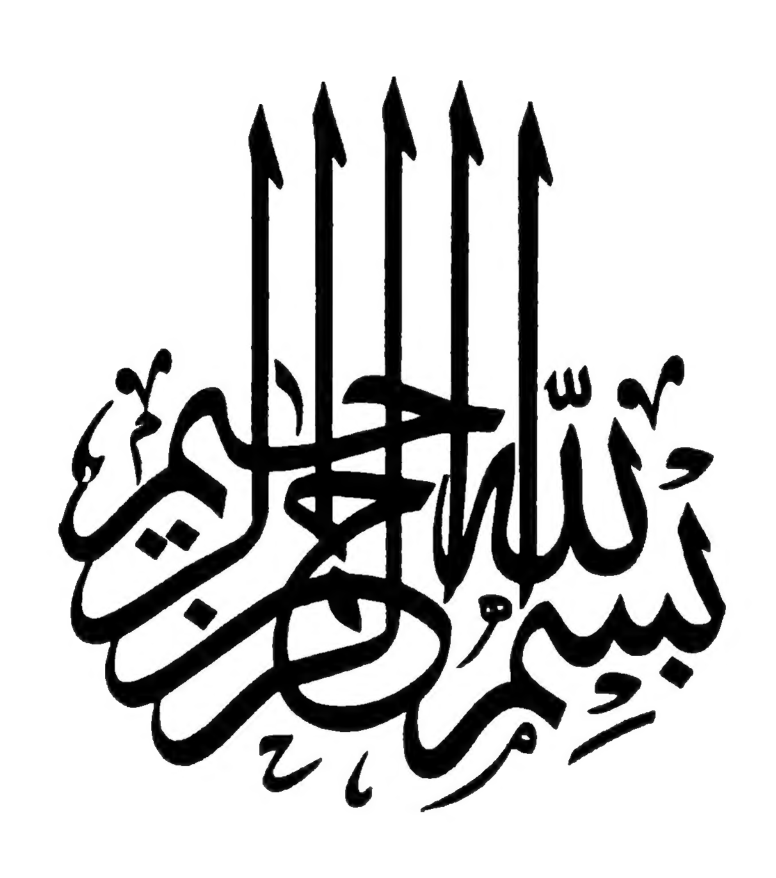
دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net

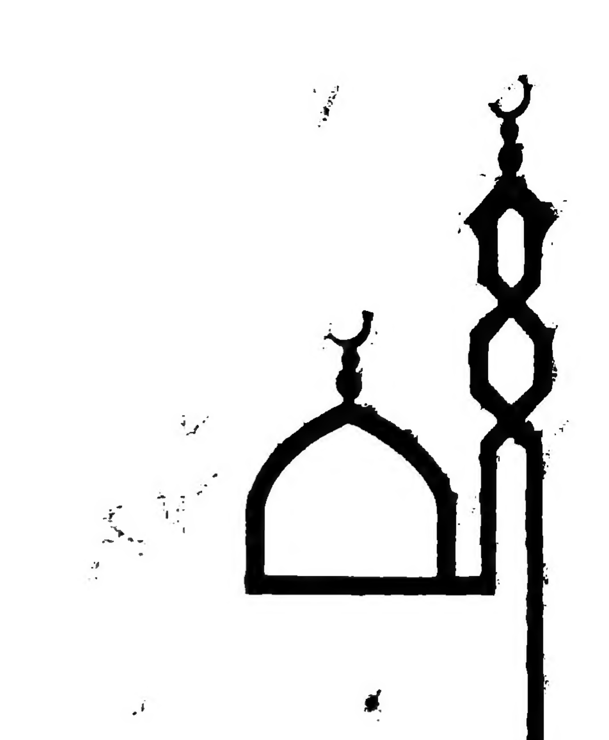
تصميم و إخراج مصطفى 0500594539
Mustafa-h123 @hotmail.com

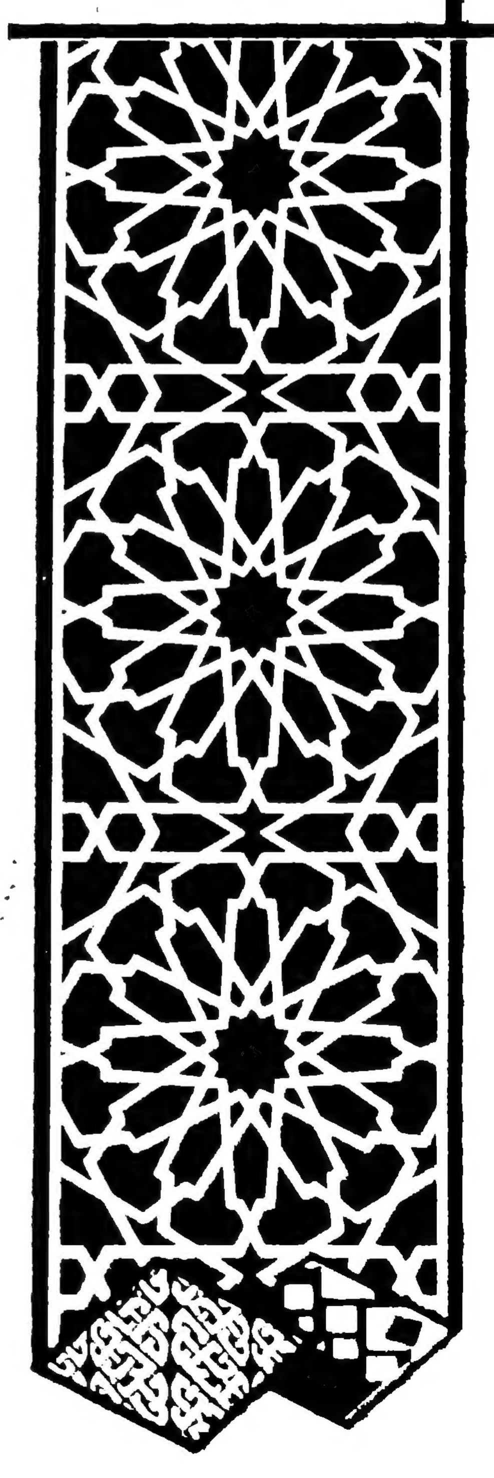
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٢١/ ٨٥٩٨
الترقيم الدولي
978 - 977 - 764 - 201 - 9



خلف الجامع الأزهر بجوار مسجد عليش
٠١٠٠٨٥٨٨٨٢٠ - ٠١١١١٣٣٢٦٦٨ - ٠١١٤١٢١٢٨٠٥
E-mail : elmarefa@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم





ذوق الصلاة عند ابن القيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

فهذا فصل نفيس في جزء لطيف، تكلَّم فيه ابن قيم الجوزية رحمه الله عن صفة الصلاة في مواضع من كتبه بطريقة مبتكرة، لم يسبق إليها فيما أعلم، حيث تكلَّم عن لُبِّ الصلاة ومخّها، وهو الخشوع، من التكبير إلى التسليم، فأتى فيه بكل عجيب ومفيد.

أما الموضع الأول: فذكره في طيَّات كتابه عن مسألة السَّماع[1] وقال في آخره: «فهذه إشارة ما، ونبذة يسيرة جداً في ذَوْق الصلاة».

والموضع الثاني: في كتابه عن الصلاة وحكم تاركها[2].

والموضع الثالث: في رسالة له إلى أحد إخوانه[3].

---

(١) طبعته دار العاصمة بالرياض عام ١٤٠٩هـ بتحقيق راشد الحمد، وقد أثبت أهم تعليقاته على النص وقوبل على تحقيق محمد عزير شمس.

(٢) طبعته مؤسسة الرسالة عام ١٤٠٥هـ بتحقيق تيسير زعيتر، وقد أثبت أهم تعليقاته على النص، مع تصويب ما يلزم بطبعة دار ابن كثير بتحقيق محمد نظام الدين وقوبل على تحقيقات عدنان البخاري.

(٣) طبعته دار عالم الفوائد بتحقيق عبدالله المديفر عام ١٤٢٥هـ وتم الاعتماد عليها.

والموضع الرابع: في كتابه الشفاء العليل [1].

ولما كانت هذه الفصول على نفاستها مغمورةً بين تلك الصفحات، كان من المفيد جداً إفرادها ليعمَّ نفعها المسلمين كافة معنوناً بكلمات تناسب فقراته.

وعن كلمة الذوق قال ابن تيمية رحمه الله: «فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحسُّ به ويجد ألمه أو لذته» [2].

وقال أيضاً: «فهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يُذْكرُ من الوَجْد والذَوْق الإيماني الشرعي دون الضلالي البدعي»، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» [3].

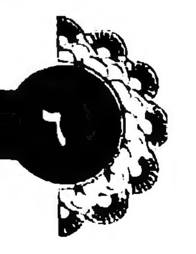
ونقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قال: «إذا لم تجد للعمل

---

(١) كتاب طبعته عالم الفوائد بتحقيق ساهر بن سالم بن فقيه، عام ١٤٤٠هـ.

(٢) الفتاوى (٧/ ١٠٩).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٤٨).



حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتَّهِمْهُ، فإن الربَّ تعالى شكور».

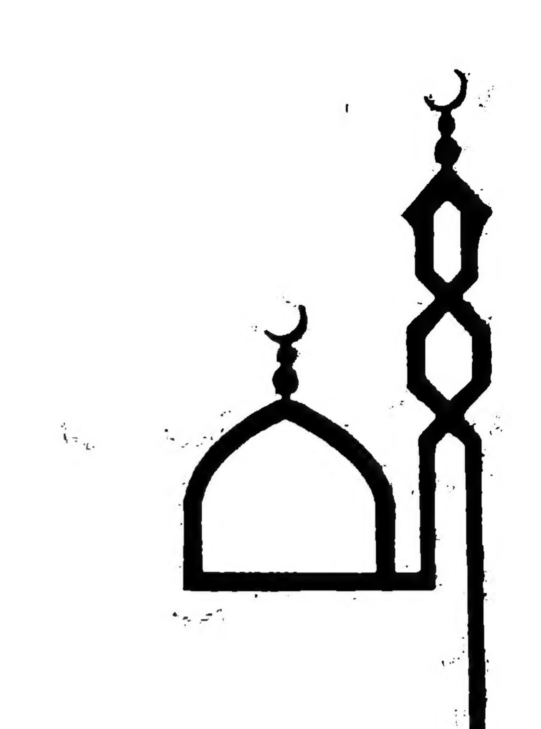
قال ابن القيم معقباً عليه: «يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول»[1] اهـ. كلامه.

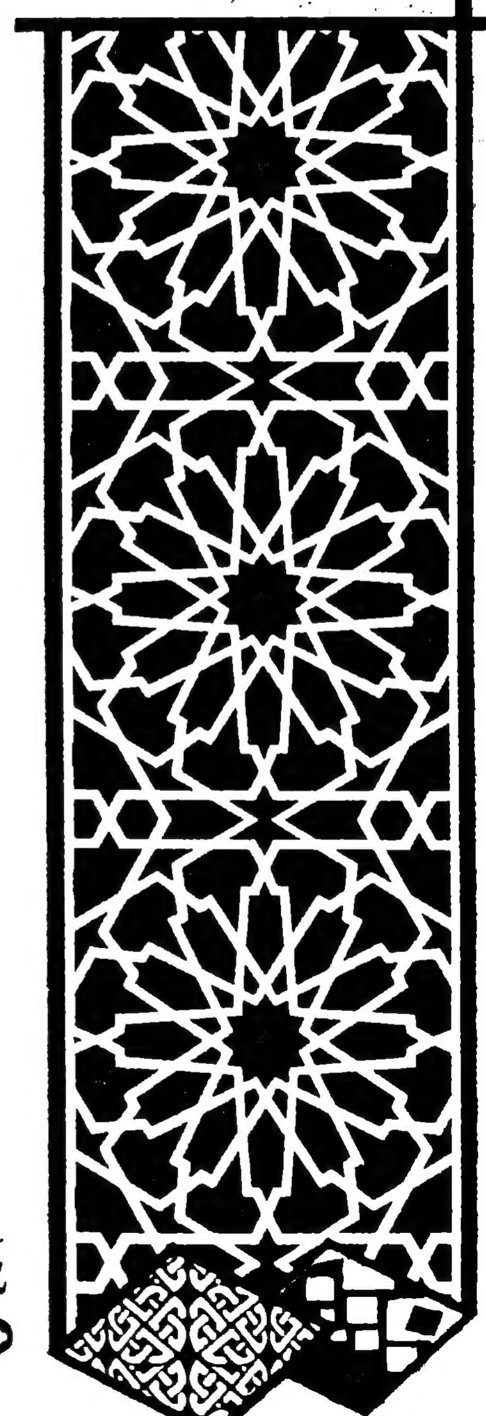
وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

كتبـــــه

د. عادل بن عبدالشكور الزُّرَقي
أستاذ الحديث المشارك بجامعة الملك سعود

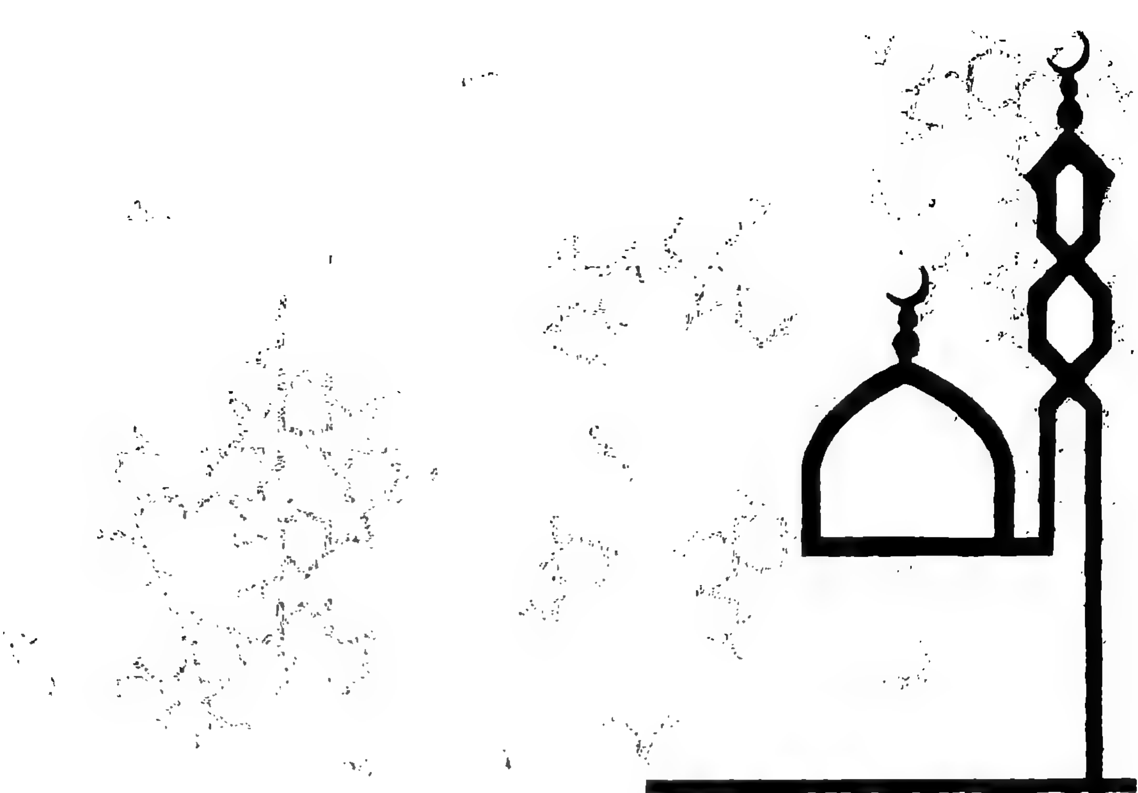
(١) مدارج السالكين (منزلة المراقبة).

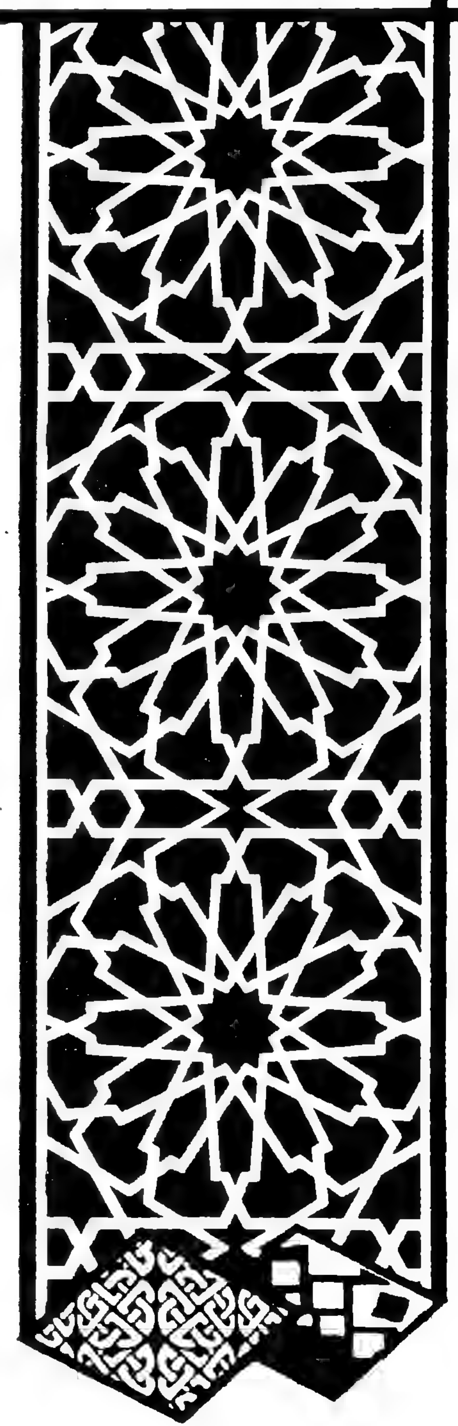




ذوق الصلاة عند ابن القيم


الرسالة الأولى
قال ابن القيم رحمه الله

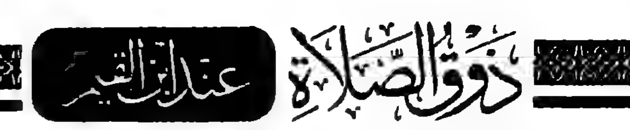




ذوق الصلاة عند ابن القيم رحمه الله

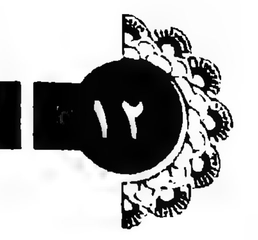
حقيقة الصلاة

«لا ريب أن الصلاة قرة عيون المحبّين، ولذة أرواح الموحّدين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمته المهداة إلى عبيده. هداهم إليها وعرّفهم بها؛ رحمة بهم وإكراماً لهم؛ لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه. لا حاجة منه إليهم، بل مِنَّة منه وفضلاً منه عليهم، وتعبد بها القلب والجوارح جميعاً، وجعل حظ القلب منها أكمل الحظين وأعظمهما، وهو إقباله على ربِّه سبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعّمه بحبّه، وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميل حقوق عبوديته؛ حتى تقع على الوجه الذي يرضاه.



الصلاة مأدبة وغيث

ولما امتحن سبحانه عبده بالشهوات وأسبابها من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيَّأ له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخِلَع والعطايا، ودعاه إليه كل يوم خمس مرات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة - لهذا العبد الذي قد دعاه إلى المأدبة - ليست في اللون الآخر؛ لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفِّراً لمذموم كان يكرهه بإزائه، ليثيبه عليه نوراً خاصاً وقوة في قلبه وجوارحه وثواباً خاصاً يوم لقائه.



الصدور من المأدبة

فيصدر المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه، وَخَلَعَ عليه بخِلَعِ القبول وأغناه؛ لأن القلب كان قبل قد ناله من القحط والجدب والجوع والظمأ والعُرْي والسقم ما ناله، فأصدره من عنده وقد أغناه عن الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه.



تجديد الدعوة

ولما كانت الجدوب متتابعة، وقحط النفوس متوالياً، جدد له الدعوة إلى هذه المأدبة وقتاً بعد وقت؛ رحمة منه به، فلا يزال مستسقياً مَنْ بيده غيث القلوب وسقيها، مستمطراً سحائب رحمته؛ لئلا ييبس ما أنبتته له تلك من كلأ الإيمان وعشبه وثماره، ولئلا تنقطع مادة النبات والقلب في استسقاء واستمطار، هكذا دائماً يشكو إلى ربّه جدبه وقحطه وضرورته إلى سقيا رحمته، وغيث بره، فهذا دأب العبد أيام حياته.

الغفلة قحط

فإن الغفلة التي تنزل بالقلب هي القحط والجدب، فما دام في ذكر الله والإقبال عليه فغيث الرحمة واقع عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة، فإذا تمكّنت الغفلة واستحكمت صارت أرضه ميتة، وسنّته جرداء يابسة، وحريق الشهوات فيها من كل جانب كالسمايم[1] .

(١) السمايم: الريح الحارة. لسان العرب: (١٢/ ٣٠٤).

عاقبة الغفلة

وإذا تداركه عليه غيث الرحمة اهتزت أرضه وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فإذا ناله القحط والجدب كان بمنزلة شجرة رطوبتها ولينها وثمارها من الماء، فإذا منعت من الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها، وحبست ثمارها وربما يبست الأغصان والشجرة، فإذا مددت منها غصناً إلى نفسك لم يمتد ولم ينقد لك وانكسر، فحينئذ تقتضي حكمة قيّم البستان قطع تلك الشجرة وجعلها وقوداً للنار.

يبوسة القلب

فكذلك القلب، إنما ييبس إذا خلا من توحيد الله وحبه ومعرفته وذكره ودعائه فتصيبه حرارة النفس، ونار الشهوات فتمتنع أغصان الجوارح من الامتداد إذا مددتها والانقياد إذا قدتها، فلا تصلح بعد هي والشجرة إلا للنار ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

مطر القلب

فإذا كان القلب ممطوراً بمطر الرحمة كانت الأغصان لينة منقادة رطبة، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك، وأقبلت سريعة لينة وادعة، فجنيت منها من ثمار العبودية ما يحمله كل غصن من تلك الأغصان ومادتها من رطوبة القلب وريه، فالمادة تعمل عملها في القلب والجوارح، وإذا يبس القلب تعطّلت الأغصان من أعمال البر؛ لأن مادة القلب وحياته قد انقطعت منه فلم تنتشر في الجوارح، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية.

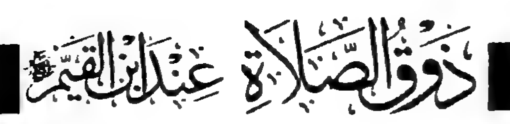
***

استعمال الجوارح

ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تخصه، وطاعة مطلوبة منها، خلقت لأجلها وهيِّئت لها.

والناس بعد ذلك ثلاثة أقسام:

- أحدها: مَنِ استعمل تلك الجوارح فيما خُلقت له وأُريد منها، فهذا هو الذي تاجر مع الله بأربح التجارة وباع نفسه لله بأربح البيع، والصلاة وضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعاً لقيام القلب بها.
- الثاني: مَنِ استعملها فيما لم تُخْلَقْ له، ولم يُخلق لها، فهذا هو الذي خاب سعيه وخسرت تجارته، وفاته رضى ربه عنه وجزيل ثوابه، وحصل على سخطه وأليم عقابه.
- الثالث: مَنْ عَطَّلَ جوارحَه وأماتها بالبطالة، فهذا أيضاً خاسر أعظم خسارة، فإن العبد خلق للعبادة والطاعة لا للبطالة، وأبغض الخلق إلى الله البطال الذي هو لا في شغل الدنيا ولا في سعي الآخرة، فهذا كَلٌّ على الدنيا والدين.

جوارح الطاعة

فالأول كرجل أُقْطِعَ أرضاً واسعة وأُعِين بآلات الحرث والبذار، وأُعْطِيَ ما يكفيها لسقيها، فحرثها وهيّأها للزراعة وبذر فيها من أنواع الغلال، وغرس فيها من أنواع الثمار والفواكه المختلفة الأنواع، ثم لم يهملها بل أقام عليها الحرس وحفظها من المفسدين، وجعل يتعاهدها كل يوم فيصلح ما فسد منها، ويغرس عوض ما يبس وينفي دغلها، ويقطع شوكها، ويستعين بمغلِّها على عمارتها.



جوارح المعصية

والثاني بمنزلة رجل أخذ تلك الأرض فجعلها مأوى للسباع والهوام ومطرحاً للجيف والأنتان، وجعلها معقلاً يأوي إليه كل مفسد ومؤذ ولص، وأخذ ما أعين به على بذارها وصلاحها، فصرفه معونة ومعيشة لمن فيها من أهل الشر والفساد.



جوارح البطالة

والثالث بمنزلة رجل عطّلها وأهملها وأرسل ذلك الماء ضائعاً في القفار والصحاري، فقعد مذموماً محسوراً.

فهذا مثال أهل الغفلة، والذي قبله مثال أهل الخيانة والجناية، والأول مثال أهل اليقظة والاستعداد لما خلقوا له.

فالأول: إذا تحرك أو سكن أو قام أو قعد أو أكل أو شرب أو نام أو لبس أو نطق أو سكت كان ذلك كله له لا عليه، وكان في ذكر وطاعة وقُربة ومزيد.

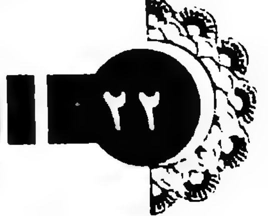
والثاني: إذا فعل ذلك كان عليه لا له، وكان في طرد وإبعاد وخسران.

والثالث: إذا فعل ذلك كان في غفلة وبطالة وتفريط.

فالأول: يتقلّب فيما يتقلّب فيه بحكم الطاعة والقربة.

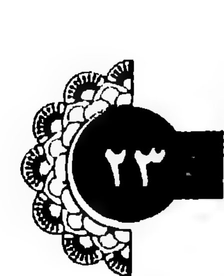
والثاني: يتقلّب في ذلك بحكم الخيانة والتعدي، فإن الله لم يملكه ما ملكه ليستعين به على مخالفته، فهو جان متعد خائن لله في نعمه، معاقب على التنعُّم بها في غير طاعته.

والثالث: يتقلّب في ذلك ويتناوله بحكم الغفلة وبهجة النفس



وطبيعتها، لم يبتغِ بذلك رضوان الله والتقرُّب إليه، فهذا خسران بيِّن؛ إذْ عطَّل أوقات عمره التي لا قيمة لها عن أفضل الأرباح والتجارب.

فدعا الله سبحانه الموحِّدين إلى هذه الصلوات الخمس؛ رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيها أنواع العبادة؛ لينال العبد من كل قول وفعل وحركة وسكون حظَّه من عطاياه.



وافــد الملك

وكان سِرُّ الصلاة ولبّها إقبال القلب فيها على الله وحضوره بكليته بين يديه، فإذا لم يقبل عليه واشتغل بغيره وَلَهَا بحديث النفس، كان بمنزلة وافد وفَدَ إلى باب الملك معتذراً من خطئه وزلله مستمطراً لسحايب جوده ورحمته مستطعماً له ما يقوت قلبه؛ ليقوى على القيام في خدمته، فلما وصل إلى الباب ولم يبق إلا مناجاة الملك، التفت عن الملك وزاغ عنه يميناً أو ولاَّه ظهره، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك وأقله عنده قدراً، فآثره عليه وصيّره قبلة قلبه، ومحل توجّهه، وموضع سرّه، وبعث غلمانه وخدمه؛ ليقفوا في طاعة الملك، ويعتذروا عنه وينوبوا عنه في الخدمة، والملك شاهد ذلك ويرى حاله.

كرم الملك

ومع هذا فكرم الملك وجوده وسعة بره وإحسانه يأبى أن ينصرف عنه تلك الخدم والأتباع فيصيبها من رحمته وإحسانه.

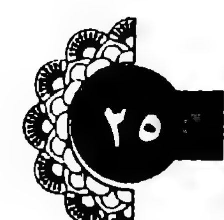
لكن فَرْقٌ بين قسمة الغنائم على أهل السُّهمان من الغانمين وبين الرضخ[1] لمن لا سهم له ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩ ﴾[2]، والله سبحانه خلق هذا النوع الإنساني لنفسه واختصّه وخلق له كل شيء كما في الأثر الإلهي «ابن آدم، خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له».

وفي أثر آخر: «خلقتك لنفسي، فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم، اطلبني تجدني، وإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا خير لك من كل شيء».

---

(١) الرضخ: العطية القليلة. انظر: النهاية لابن الأثير (٦٠٢٨).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٩.



سبب القرب

وجعل الصلاة سبباً موصلاً له إلى قربه ومناجاته ومحبته والأنس به، وما بين صلاتين تحدث له الغفلة والجفوة والأعراض والزلات والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحّيه عن قربه، ويصير كأنه أجنبي عن العبودية ليس من جملة العبيد، وربما ألقى بيده إلى أسر العدو فأسره وغلّه وقيّده وحبسه في سجن نَفْسِهِ وهواه، فحظه ضيق الصدر، ومعالجة الهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك.

فاقتضت رحمة ربه الرحيم به أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة مختلفة الأجزاء والحالات، بحسب اختلاف الأحداث التي جاءت من العبد وبحسب شدة حاجته إلى نصيبه من كل جزء من أجزاء تلك العبودية.

طهارة القدوم

فبالوضوء يتطهّر من الأوساخ ويقدم على ربه متطهّراً، والوضوء له ظاهر وباطن، وظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة، ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]، وشرع النبي ﷺ للمتطهّر بعد فراغه من الوضوء أن يتشهّد، ثم يقول: «اللهم اجعلني من التوّابين، واجعلني من المتطهّرين»[2] ، فكمل له مراتب الطهارة باطناً وظاهراً.

فإنه بالشهادة يتطهّر من الشرك، وبالتوبة يتطهّر من الذنوب، وبالماء يتطهّر من الأوساخ الظاهرة، فشرع أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله والوقوف بين يديه، فلما طهر ظاهراً وباطناً أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه؛ إذ يخلص من الإباق بمجيئه إلى داره ومحل عبوديته.

ولهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة الواجبة عند قوم والمستحبة عند آخرين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه الترمذي في جامعه - كتاب الطهارة/ باب فيما يقال بعد الوضوء: ١/ ٧٧.

استقبال القبلة

والعبد كان في حال غفلته كالآبق عن ربه وقد عطل جوارحه وقلبه عن الخدمة التي خلق لها، فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقه، فإذا وقف بين يديه موقف العبودية والتذلل والانكسار فقد استدعى عَطْف سيده عليه وإقباله عليه بعد الإعراض.

وأمر بأن يستقبل القبلة بيته الحرام بوجهه، ويستقبل الله عز وجل بقلبه لينسلخ مما كان فيه من التولي والإعراض، ثم قام بين يديه مقام الذليل الخاضع المسكين المستعطف لسيده، وألقى بيديه مسلماً مستسلماً ناكس الرأس خاشع القلب مطرق الطرف، لا يلتفت قلبه عنه ولا طرفه يمنة ولا يسرة، بل قد توجّه بقلبه كله إليه وأقبل بكليته عليه.

حقيقة التكبير

ثم كَبَّرَهُ بالتعظيم والإجلال وواطأ قلبه في التكبير لسانه، فكان «الله» أكبر في قلبه من كل شيء، وصدَّق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، فإذا اشتغل عن الله بغيره وكان ما اشتغل به أهم عنده من الله كان تكبيره بلسانه دون قلبه.

فالتكبير:

١- يخرجه من لبس رداء التكبُّر المنافي للعبودية.

٢- ويمنعه من التفات قلبه إلى غير الله.

فإذا كان الله عنده وفي قلبه أكبر من كل شيء منعه حق قول «الله أكبر» والقيام بعبودية التكبير عن هاتين الآفتين اللتين هما من أعظم الحجب بينه وبين الله.

دعاء الاستفتاح

فإذا قال: «سبحانك اللهم وبحمدك» وأثنى على الله بما هو أهله، فقد خرج عن الغفلة التي هي حجاب أيضاً بينه وبين الله.

وأتى بالتحية والثناء الذي يخاطب به الملك عند الدخول عليه؛ تعظيماً له وتمجيداً ومقدمة بين يدي حاجته، فكان في هذا الثناء من أدب العبودية ما يستجلب به إقباله عليه ورضاه عنه وإسعافه بحوائجه.



الاستعاذة بالله

فإذا شرع في القراءة قدَّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان، فإنه أحرص ما يكون على العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقاماته وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه واقتطاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه وعطّله عن القيام بين يدي الرب تعالى، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه؛ ليسلم له مقامه بين يدي ربه، وليحيي قلبه ويستنير بها يتدبّره ويتفهّمه من كلام سيده الذي هو سبب حياته ونعيمه وفلاحه، فالشيطان أحرص على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة.

ولما علم سبحانه جدَّ العدو وتفرُّغه للعبد، وعجز العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه ويلتجئ إليه في صرفه عنه فيكتفي بالاستعاذة مؤنة محاربته ومقاومته، فكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعذ بي واستجر بي أكفكه، وأمنعك منه.

وقال لي شيخ الإسلام[1] -قدّس الله روحه- يوماً: «إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب».

---

(١) هو ابن تيمية رحمه الله.

فإذا استعاذ بالله من الشيطان بَعُدَ منه، فأفضى القلب إلى معاني القرآن، ووقع في رياضه المونقة[1]، وشاهد عجائبه التي تبهر العقول، واستخرج من كنوزه وذخائره ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكان الحائل بينه وبين ذلك النفس والشيطان، والنفس منفعلة للشيطان سامعة منه، فإذا بعد عنها وطرد لمّ بها المَلَك وثبتها وذكّرها بما فيه سعادتها ونجاتها.

---

(١) المونق: من الأنق وهو الفرح والسرور، ورياضه المونقة أي: بساتينه التي تجلب الفرح والسرور.



القـــراءة

فإذا أخذ في قراءة القرآن فقد قام في مقام مخاطبة ربه ومناجاته، فليحذر كل الحذر من التعرُّض لمقته وسخطه أن يناجيه ويخاطبه وهو معرض عنه، ملتفت إلى غيره، فإنه يستدعي بذلك مقته ويكون بمنزلة رجل قرَّبه ملكٌ من ملوك الدنيا فأقامه بين يديه، فجعل يخاطبه الملك وقد ولاه قفاه أو التفت عنه بوجهه يمنة ويسرة، فما الظن بمقت الملك لهذا، فما الظن بالملك الحق المبين الذي هو رب العالمين وقيوم السماوات والأرض.

وليقف عند كل آية من الفاتحة ينتظر جواب ربّه له وكأنه سمعه يقول: حمدني عبدي حين يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقف لحظة ينتظر قوله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، انتظر قوله: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، انتظر قوله: هذا بيني وبين عبدي، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، إلى آخر انتظر قوله: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل[1].

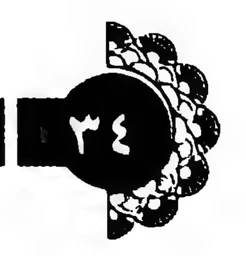
(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة، وأوله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» -أخرجه مسلم- كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة: ١/ ٢٩٦.



طعم الصلاة

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامها، فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر وتأثير وعبودية لا تحصل من غيرها، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجد يخصها.

***



الحمد لله

فعند قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ تجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلاً ووصفاً واسماً، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزّه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه، فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال، وأسماؤه كلها حسنى، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده، والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووُجِدَ بحمده. فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده، وإرساله رسوله بحمده، وإنزاله كتبه بحمده، والجنة عمرت بأهلها بحمده، والنار عمرت بأهلها بحمده، وما أطيع إلا بحمده، وما عُصي إلا بحمده، ولا تسقط ورقة إلا بحمده، ولا تتحرك في الكون ذرة إلا بحمده، وهو المحمود لذاته، وإن لم يحمده العباد، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحّده العباد، والإله الحق وإن لم يؤلهوه، وهو سبحانه الذي حمد نفسه على لسان القائل: الحمد لله رب العالمين، كما قال النبي ﷺ: **«إن الله تعالى قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده»**[1].

---

(١) إشارة إلى حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أخرجه مسلم (٤٠٤).

فهو الحامد لنفسه في الحقيقة على لسان عبده، فإنه الذي أجرى الحمد على لسانه وقلبه وإجراؤه بحمده.

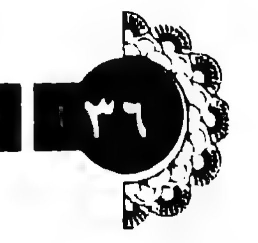
فله الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فهذه المعرفة من عبودية الحمد.

ومن عبوديته أيضاً أن يعلم أن حمده لربه سبحانه نعمة منه عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده على هذه النعمة استوجب عليه حمداً آخر على نعمة حمده وهلمَّ جرًّا.

فالعبد ولو استنفد أنفاسه كلها في حمده على نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ كان ما يجب له من الحمد ويستحق فوق ذلك وأضعاف، ولا يُحصي أحد البتة ثناء عليه بمحامده.

ومن عبودية العبد شهود العبد لعجزه عن الحمد وأنّ ما قام به منه، فالرب سبحانه هو المحمود عليه؛ إذ هو مجريه على لسانه وقلبه.

ومن عبوديته تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرة وباطنة على ما يحب العبد وما يكرهه، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة، وإن غاب عن شهود العبد.



رب العالمين

ثم لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من العبودية شهود تفرده سبحانه بالربوبية، وأنه كما أنه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومدبّر أمورهم وموجدهم ومفنيهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم وملجؤهم ومفزعهم عند النوائب، فلا رب غيره، ولا إله سواه.

***

الرحمن الرحيم

ثم لقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، عبودية تخصها، وهي شهود عموم رحمته وسعتها لكل شيء وأخذ كل موجود بنصيبه منها، ولا سيما الرحمة الخاصة به التي أقامت عبده بين يديه في خدمته، يناجيه بكلامه ويتملّقه ويسترحمه ويسأله هدايته ورحمته وإتمام نعمته عليه، فهذا من رحمته بعبده، فرحمته وسعت كل شيء كما أن حمده وسع كل شيء.

مالك يوم الدين

ثم يُعطي قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ عبوديتها ويتأمّل تضمنها لإثبات المعاد، وتفرُّد الرب فيه بالحكم بين خلقه، وأنه يوم يدين فيه العباد بأعمالهم في الخير والشر، وذلك من تفاصيل حمده وموجبه.

ولما كان قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ إخباراً عن حمده تعالى قال الله: «حمدني عبدي»، ولما كان قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إعادة وتكريراً لأوصاف كماله قال: «أثنى عليَّ عبدي»، فإن الثناء إنما يكون بتكرار المحامد وتعداد أوصاف المحمود، ولما وصفه سبحانه بتفرُّده بـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وهو الملك الحق المتضمن لظهور عدله وكبريائه وعظمته ووحدانيته وصدق رسله، سمّى هذا الثناء مجداً، فقال: «مجَّدني عبدي»، فإن التمجيد هو الثناء بصفات العظمة والجلال.

إياك نعبد وإياك نستعين

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر جواب ربه له: «هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»، وتأمل عبودية هاتين الكلمتين وحقوقهما، ومَيِّزَ الكلمة التي لله والكلمة التي للعبد، وفَقِهَ سرَّ كون إحداهما لله والأخرى للعبد، ومَيَّز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والتوحيد الذي تقتضيه كلمة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفَقِهَ سرَّ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما والدعاء بعدهما، وفَقِهَ تقديم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وتقديم المعمول على الفعل مع الإتيان به مؤخراً، أوجز وأشد اختصاراً، وسِرَّ إعادة الضمير مرة بعد مرة، وعلم ما تدفع كل واحدة من الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية، وكيف تدخله الكلمتان في صريح العبودية، وعَلِمَ كيف يدور القرآن من أوله إلى آخره على هاتين الكلمتين، بل كيف يدور عليهما الخلق والأمر والثواب والعقاب والدنيا والآخرة، وكيف تضمنتا لأجلِّ الغايات وأكملِ الوسائل، وكيف جِيء بهما بضمير الخطاب والحضور دون ضمير الغائب.

***

اهدنا الصراط المستقيم

ثم تأمل ضرورته وفاقته إلى قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي مضمونه:

١- معرفة الحق.

٢-وقصده وإرادته.

٣- والعمل به.

٤- والثبات عليه.

والدعوة إليه، والصبر على أذى المدعو.

فباستكمال هذه المراتب الخمس تستكمل الهداية وما نقص منها نقص من هدايته.

أمور الهداية

ولما كان العبد مفتقراً إلى هذه الهداية في ظاهره وباطنه، في جميع ما يأتيه ويذره من:

١- أمور قد فعلها على غير الهداية علماً، وعملاً، وإرادة. فهو محتاج إلى التوبة منها، وتوبته منها هي الهداية.

٢- وأمور قد هدي إلى أصلها دون تفصيلها، فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها.

٣- وأمور قد هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها؛ لتتم له الهداية ويزاد هدى إلى هداه.

٤- وأمور يحتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

٥- وأمور يعتقد فيها بخلاف ما هي عليه، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد، وتثبت فيه ضده.

٦- وأمور من الهداية هو قادر عليها، ولكن لم يخلق له إرادة فعلها فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة يفعلها بها.

٧- وأمور منها هو غير قادر على فعلها مع كونه مريداً، فهو محتاج في هدايته إلى إقداره عليها.

٨- وأمور منها هو غير قادر عليها ولا مريد لها فهو محتاج إلى خلق القدرة والإرادة له لتتم له الهداية.

٩- وأمور هو قائم بها على وجه الهداية اعتقاداً وإرادة وعملاً فهو محتاج إلى الثبات عليها واستدامتها.

كانت[1] حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات وفاقته إليها أشد الفاقات، فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال كل يوم وليلة في أفضل أحواله، وهي الصلوات الخمس مرات متعددة، لشدة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب.

---

(١) جواب قوله: «ولما كان العبد مفتقراً».

الناس والهداية

ثم بَيَّنَ أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال، فانقسم الخلق إذاً ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

١- مُنْعَمٌ عليه بحصولها، واستمرار حظه من النعم بحسب حظه من تفاصيلها وأقسامها.

٢- وضالٌّ لم يُعْطَ هذه الهداية ولم يوفق لها.

٣- ومغضوبٌ عليه عرفها ولم يوفَّق للعمل بموجبها.

فالأول المُنعَم عليه قام بالهُدَى ودين الحق علماً وعملاً، والضال منسلخ عنه علماً وعملاً، والمغضوب عليه عارف به علماً منسلخ منه عملاً.

***

مشروعية التأمين

ثم شرع له التأمين عند هذا الدعاء تفاؤلاً بإجابته وحصوله وطابعاً عليه وتحقيقاً له، ولهذا اشتد حسد اليهود للمسلمين عليه حين سمعوهم يجهرون به في صلاتهم.

الركـــوع

ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع؛ تعظيماً لأمر الله، وزينة للصلاة، وعبودية خاصة لليدين كعبودية باقي الجوارح، واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فهو حلية الصلاة وزينتها، وتعظيماً لشعائرها.

ثم شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من ركن إلى ركن كالتلبية في انتقالات الحاج من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، كما أن التلبية شعار الحج؛ ليعلم العبد أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى وتكبيره بعبادته وحده.

ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً لعظمته واستكانة لهيبته وتذللاً لعزته، فثنى العبد له صلبه ووضع له قامته ونكّس له رأسه وحنى له ظهره؛ معظّماً له ناطقاً بتسبيحه المقترن بتعظيمه، فاجتمع له خضوع القلب وخضوع الجوارح وخضوع القول على أتم الأحوال، وجمع له في هذا الذكر بين الخضوع والتعظيم لربه والتنزيه له عن خضوع العبيد، وأن الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب.

وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر العبد ويتضاءل بحيث يمحو تصاغره كُلَّ تعظيمٍ منه لنفسه، ويثبت مكانه تعظيمَهُ لربه، وكلما استولى على قلبه تعظيم الرب ازداد تصاغره هو عند نفسه، فالركوع للقلب بالذات والقصد، وللجوارح بالتبع والتكملة.

الاعتدال من الركوع

ثم شرع له أن يحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه ورجوعه إلى أحسن هيأته منتصب القامة معتدلها، فيحمد ربه ويثني عليه بأن وفّقه لذلك الخضوع، ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء بين يديه، واقفاً في خدمته كما كان في حال القراءة.

ولذلك الاعتدال ذوق خاص وحال يحصل للقلب سوى ذوق الركوع وحاله، وهو ركن مقصود لذاته كَرُكْنِ الركوع والسجود سواء؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يطيله كما يطيل الركوع والسجود، ويكثر فيه من الثناء والحمد والتمجيد كما ذكرناه في هديه[1] ﷺ، وكان في قيام الليل يكثر فيه من قول «لربي الحمد لربي الحمد»[2] يكررها.

---

(١) انظر زاد المعاد: ١/ ٥٥.

(٢) جزء من حديث رواه حذيفة - أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة/ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (١/ ٢٣١) والنسائي في سننه كتاب الافتتاح/ باب: ما يقول في قيامه ذلك»، (٢/ ١٩٩) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٩٨).

السجدة الأولى

ثم شرع له أن يكبّر ويخرّ ساجداً، ويعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه مسندة راغماً له أنفه خاضعاً له قلبه، ويضع أشرف ما فيه وهو وجهه بالأرض ولا سيما على التراب، معفراً له بين يدي سيده، راغماً له أنفه، خاضعاً له قلبه وجوارحه، متذللاً لعظمته، خاضعاً لعزته، مستكيناً بين يديه، أذل شيء وأكسره لربه تعالى، مسبحاً له بعلوه في أعظم سفوله، قد صارت أعاليه ملوية لأسافله؛ ذلاً وخضوعاً وانكساراً وقد طابق قلبه حال جسمه، فسجد القلب كما سجد الوجه، وقد سجد معه أنفه ويداه وركبتاه ورجلاه.

وشرع له أن (يُقِلَّ)[1] فخذيه عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه، وعضديه عن جنبيه، ليأخذ كل جزء منه حظه من الخضوع ولا يحمل بعضه بعضاً.

فَأَحْرِ بِهِ في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال، كما قال النبي ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**[2].

---

(١) يقل: يرفع، النهاية لابن الأثير (١٣٢٧٩).

(٢) هذا الحديث رواه أبو هريرة -أخرجه مسلم- كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود: ١/ ٣٥٠.

سجود القلب

ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربه، أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم لقائه.

كما قيل لبعض السلف: هل يسجد القلب؟ قال: (أي والله سجدة لا يرفع رأسه منها حتى يلقى الله)[1].

---

(١) القائل: سهل بن عبدالله التستري كما في مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣/ ١٣٨.

أسماء الصلاة

ولما بنيت الصلاة على خمس: القراءة، والقيام، والركوع، والسجود، والذكر سميت باسم كل واحد من هذه الخمس.

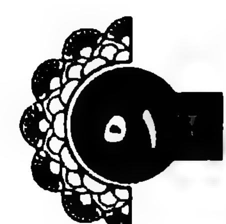
فسميت قياماً كقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، وقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[2].

وقراءة كقوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[3].

وركوعاً كقوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨﴾[5].

وسجوداً كقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[6]، وقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾[7]، وذكراً كقوله: ﴿إِذَا

(١) سورة المزمل، الآية: ٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٥) سورة المرسلات، الآية: ٤٨.
(٦) سورة الحجر، الآية: ٩٨.
(٧) سورة العلق، الآية: ١٩.



نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

وقوله: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وأشرف أفعالها السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ، افتتحت بالقراءة وختمت بالسجود، ووضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

الاعتدال من السجود

ثم شرع له أن يرفع رأسه ويعتدل جالساً. ولما كان هذا الاعتدال محفوفاً بسجودين: سجود قبله وسجود بعده، فينتقل من السجود إليه ثم منه إلى السجود كان له شأن.

فكان رسول الله ﷺ يطيله بقدر السجود يتضرع فيه إلى ربه، ويستغفره ويسأله رحمته وهدايته ورزقه وعافيته[1]، وله ذوق خاص وحال للقلب غير ذوق السجود وحاله.

---

(١) إشارة إلى حديث ابن عباس - أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة/ باب الدعاء بين السجدتين ١/ ٢٢٤ أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «اللهم اغفر لي وارحمني، وعافني واهدني وارزقني».

الجلوس بين السجدتين وذوقه

فالعبد في هذا القعود قد تمثّل جاثياً بين يدي ربه ملقياً نفسه بين يديه، معتذراً إليه مما جناه، راغباً إليه أن يغفر له ويرحمه، مستعدياً على نفسه الأمّارة بالسوء.

وكان النبي ﷺ يكرر الاستغفار[1] في هذه القعدة، ويكثر رغبته إلى الله فيها.

فمثّل نفسك بمنزلة غريم عليه حق الله وأنت كفيل به، والغريم مماطل مخادع وأنت مطلوب بالكفالة والغريم مطلوب بالحق.

فأنت تستعدي عليه حتى تستخرج ما عليه من الحق لتتلخص من المطالبة.

والقلب شريك النفس في الخير والشر والثواب والعقاب والحمد والذم، والنفس من شأنها الإباق والخروج من رق العبودية، وتضييع حقوق الله التي قِبَلَهَا، والقلب شريكها إن قوي سلطانها وأسيرها، وهي شريكة وأسيرة إن قوي سلطانه.

---

(١) إشارة إلى حديث حذيفة أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي، رب اغفر لي»، أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة/ باب ما يقول بين السجدتين ١/ ٢٨٨، والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح/ باب ما يقول في قيامه ذلك ٢/ ١٩٩.

جماع الخير

شُرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله مستعدياً على نفسه، معتذراً إلى ربه مما كان منها، راغباً إليه أن يرحمه ويغفر له ويهديه ويرزقه ويعافيه وهذه الخمس هي جماع خير الدنيا والآخرة.

فإن العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضار عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمنها هذا الدعاء. فإن الرزق يجلب له مصالح دنياه، والعافية تدفع مضارها، والهداية تجلب له مصالح أخراه، والمغفرة تدفع عنه مضارها، والرحمة تجمع ذلك كله.

السجدة الثانية

وشرع له أن يعود ساجداً كما كان، ولا يكتفي منه بسجدة واحدة في الركعة كما اكتفى منه بركوع واحد، لفضل السجود وشرفه وموقعه من الله، حتى إنه أقرب ما يكون إلى عبده وهو ساجد، وهو أدخل في العبودية وأعرق فيها من غيره؛ ولهذا جعل خاتمة الركعة وما قبله كالمقدمة بين يديه، فمحله من الصلاة محل طواف الزيارة، وما قبله من التعريف وتوابعه مقدمات بين يديه، وكما أنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فكذلك أقرب ما يكون منه في المناسك وهو طائف.

ولهذا قال بعض الصحابة لمن كلّمه في طوافه بأمر من الدنيا: «أتقول هذا ونحن نتراءى لله في طوافنا»[1].

ولهذا -والله أعلم- جعل الركوع قبل السجود تدريجاً وانتقالاً من الشيء إلى ما هو أعلى منه.

وشرع له تكرير هذه الأفعال والأقوال؛ إذ هي غذاء القلب والروح التي لا قوام لها إلاَّ بها، فكان تكريرها بمنزلة تكرير الأكل حتى يشبع، والشرب حتى يروى، فلو تناول الجائع لقمة واحدة وأقلع عن الطعام، ما كانت تغني عنه.

(١) قائل هذا القول عبدالله بن عمر - الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ١٦٧.

ولهذا قال بعض السلف[1]: «مثل الذي يصلي ولا يطمئن في صلاته كمثل الجائع إذا قُدِّم إليه طعام فتناول منه لقمة أو لقمتين، ماذا تغني عنه؟».

هذا وفي إعادة كل قول أو فعل من العبودية والقرب، وتنزيل الثانية بمنزلة الشكر على الأولى، وحصول مزيد منها، ومعرفة وإقبال وقوة قلب وانشراح صدر وزوال درن ووسخ عن القلب بمنزلة غسل الثوب مرة بعد مرة، فهذه حكمة الله التي بهرت العقول في خلقه وأمره ودلت على كمال رحمته ولطفه.

**

(١) ورد هذا مرفوعاً من حديث أبي عبدالله الأشعري عن جماعة من الصحابة، وصححه ابن خزيمة (٦٦٥).

جلوس التشهُّد

فلما قضى صلاته وأكملها ولم يبق إلا الانصراف منها شُرِع له الجلوس بين يدي ربه، مثنياً عليه بأفضل التحيات التي لا تصلح إلا له، ولا تليق بغيره.

***

التحيـــات لله

ولما كان عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع والثناء وطلب البقاء ودوام الملك، فمنهم من يحيى بالسجود، ومنهم من يحيى بالثناء عليه، ومنهم من يحيى بطلب البقاء والدوام له، ومنهم من يجمع له ذلك كله، فكان الملك الحق سبحانه أولى بالتحيات كلها من جميع خلقه، وهي له بالحقيقة، ولهذا فسرت التحيات بالملك، وفسرت بالبقاء والدوام وحقيقتها ما ذكرته وهي تحيات الملك، فالملك الحق المبين أولى بها.

فكل تحية يحيى بها ملك من سجود أو ثناء أو بقاء ودوام فهي لله ﷻ، ولهذا أتى بها مجموعة معرفة باللام أداة العموم وهي جمع تحية، وهي تفعيلة من الحياة، وأصلها تحيية بوزن تكرمة ثم أدغم أحد المثلين في الآخر فصارت تحيّة، وإذا كان أصلها من الحياة فالمطلوب لمن يُحَيَّى بها دوام الحياة.

وكانوا يقولون لملوكهم: لك الحياة الباقية ولك الحياة الدائمة، وبعضهم يقول: عش ألف سنة، واشتق منها أدام الله أيامك، وأطال الله بقاءك، نحو ذلك مما يراد به دوام الحياة والملك، وذلك لا ينبغي إلا للحي الذي لا يموت وللملك الذي كل ملك زائل غير ملكه.



والصلوات

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع والتعريف ليشمل كل ما أطلق عليه لفظ الصلاة خصوصاً وعموماً، فكلها لله لا تنبغي إلا له فالتحيات له ملكاً، والصلوات له عبودية واستحقاقاً، فالتحيات لا تكون إلا له، والصلوات لا تنبغي إلا له.



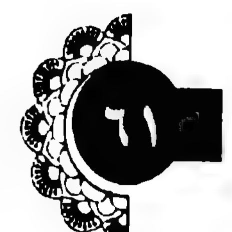
والطيبـــات

ثم عطف عليها الطيبات كذلك، وهذا يتناول أمرين: الوصف والملك.

فأما الوصف فإنه سبحانه طيب، وكلامه طيب، وفعله كله طيب، ولا يصدر منه إلا الطيب، ولا يضاف إليه إلا الطيب، ولا يصعد إليه إلا الطيب. فالطيبات له وصفاً وفعلاً وقولاً ونسبة، وكل طيب مضاف إليه، وكل مضاف إليه طيب، فله الكلمات الطيبات والأفعال الطيبات، وكل مضاف إليه كبيته وعبده وروحه وناقته وجنته فهي طيبات.

وأيضاً فمعاني الكلمات الطيبات لله وحده. فإن الكلمات الطيبات تتضمن تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتمجيده، والثناء عليه بآلائه وأوصافه. فهذه الكلمات الطيبات - التي يثنى عليه بها - ومعانيها له وحده لا يشركه فيها غيره، كسبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك[1]، ونحو

(١) إشارة إلى حديث أن عمر بن الخطاب كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» - أخرجه مسلم كتاب الصلاة/ باب حجة من قال لا تجهر بالبسملة ١/ ٢٩٩.



سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[1].

ونحو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[2].

فكل طيب فله وعنده ومنه وإليه، وهو طيب لا يقبل إلا طيباً، وهو إله الطيبين، وجيرانه في دار كرامته هم الطيبون.

فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن كيف لا تنبغي إلا لله، وهي «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

فإن «سبحان الله» تتضمن تنزيهه عن كل نقص وعيب وسوء، وعن خصائص المخلوقين وشبههم.

و«الحمد لله» تتضمن إثبات كل كمال له قولاً وفعلاً ووصفاً على أتم الوجوه وأكملها أزلاً وأبداً.

و«لا إله إلا الله» تتضمن انفراده بالإلهية، وأن كل معبود سواه

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس» - أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء/ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤/ ٢٠٧٢.

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» - أخرجه البخاري كتاب الدعاء/ باب فضل التسبيح ٨/ ١٠٧.

فباطل، وأنه وحده الإله الحق، وأنه من تألَّهَ غيرهَ فهو بمنزلة من اتخذ بيتاً من بيوت العنكبوت يأوي إليه ويسكنه.

و«الله أكبر» تتضمن أنه أكبر من كل شيء، وأجل وأعظم وأعز وأقوى وأقدر وأعلم وأحكم، فهذه الكلمات الطيبات لا تصلح هي ومعانيها إلا لله وحده.

**

السلام على النبي ﷺ وعلى عباد الله الصالحين

ثم شرع له أن يسلم على عباد الله الذين اصطفى بعد تقدُّم الحمد والثناء عليه بما هو أهله، فطابق ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ «[1]»، وكأنه امتثال له.

وأيضاً فإن هذا تحية المخلوق فشرعت بعد تحية الخالق وقدم في هذه التحية أولى الخلق بها، وهو النبي ﷺ الذي نالت أمته على يده كل خير، وعلى نفسه بعده، وعلى سائر عباد الله الصالحين وأخصهم بهذه التحية الأنبياء، ثم أصحاب رسول الله ﷺ، مع عمومها لكل عبدٍ لله صالحٍ في الأرض والسماء.

(١) سورة النمل، الآية: ٥٩.

شهادة الحق

ثم شرع له بعد ذكر هذه التحية والتسليم على من يستحق التسليم خصوصاً وعموماً أن يشهد شهادة الحق التي بنيت عليها الصلاة، وهي حق من حقوقها ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي شهادة لرسول الله ﷺ بالرسالة، وختمت بها الصلاة، كما قال عبدالله بن مسعود: (فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد)[1] .

وهذا إما أن يحمل على قضاء الصلاة حقيقة كما يقوله الكوفيون، أو على مقاربة انقضائها ومشارفته كما يقوله أهل الحجاز وغيرهم.

وعلى التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة كما شرع أن تكون خاتمة الحياة، فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة[2]، وكذلك شرع للمتوضئ أن يختم وضوءه بالشهادتين[3].

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة/ باب التشهد (١/ ٢٥٤) والدار قطني في سننه كتاب الصلاة، باب صفة التشهد (١/ ٣٥٣).

(٢) إشارة إلى حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» - أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز/ باب في التلقين (٣/ ١٩٠).

(٣) إشارة إلى حديث عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» - أخرجه مسلم، كتاب الطهارة/ باب الذكر المستحب عقب الوضوء (١/ ٢١٠).

انقضاء الصلاة

ثم لما قضى صلاته، أذن له أن يسأل حاجته، وشرع له أن يتوسّل قبلها بالصلاة على النبي ﷺ فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله، والثناء عليه، وليصل على رسوله، ثم ليسل حاجته**»[1].

فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمد الله، والثناء عليه، ثم الصلاة على رسوله، ثم الدعاء آخر الصلاة، وأذن النبي ﷺ للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخيّر من الدعاء أعجبه إليه[2]. ونظير هذا ما شرع لمن سمع المؤذن.

١ - أن يقول كما يقول[3].

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات/ باب رقم: ٦٤ (٥/ ٥١٧). وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٨).

(٢) إشارة إلى حديث رواه عبدالله بن مسعود وأخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الصلاة/ باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد (١/ ٢١٢)، ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة/ باب في التشهد في الصلاة (١/ ٣٠٢).

(٣) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الأذان/ باب ما يقول إذا سمع المنادي (١/ ١٥٩).

٢- وأن يقول: «رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً»[١].

٣- وأن يسأل الله لرسوله الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود[٢].

٤- ثم يصلي عليه [٣].

٥- ثم يسأل حاجته[٤] .

فهذه خمس سنن في إجابة المؤذن لا ينبغي الغفلة عنها.

---

(١) إشارة إلى حديث سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً غفر له ذنبه» - أخرجه مسلم كتاب الصلاة/ باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن .. إلخ ١/ ٢٩٠.

(٢) إشارة إلى حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة» - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الأذان/ باب الدعاء عند النداء ١/ ١٥٩.

(٣) إشارة إلى حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً .. إلخ» -أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة/ باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن .. إلخ، ١/ ٢٨٨.

(٤) إشارة إلى حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة» - أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ١١٩ وأبو داود كتاب الصلاة/ باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة ١/ ١٤٤، والترمذي في سننه أبواب الصلاة/ باب ما جاء في أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة ١/ ١٥٩.

الإقبال على الله

وسر الصلاة وروحها ولبُّها هو إقبال العبد على الله بكليته، فكما أنه لا ينبغي له أن يصرف وجهه عن قبلة الله يميناً وشمالاً، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربِّه إلى غيره.

فالكعبة التي هي بيت الله قبلة وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعالى هو قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرض أعرض الله عنه. وللإقبال في الصلاة ثلاث منازل:

١- إقبال على قلبه فيحفظه من الوساوس والخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة له.

٢- وإقبال على الله بمراقبته حتى كأنه يراه.

٣- وإقبال على معاني كلامه وتفاصيل عبودية الصلاة ليعطيها حقها.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث تكون إقامة الصلاة حقاً، ويكون إقبال الله على عبده بحسب ذلك.

فإذا انتصب العبد قائماً بين يديه فإقباله على قيوميته وعظمته، وإذا كَبَّرَ فإقباله على كبريائه.

فإذا سَبَّحَهُ وأثنى عليه فإقباله على سبحات وجهه وتنزيه عما لا يليق به والثناء عليه بأوصاف جماله.

فإذا استعاذ به فإقباله على ركنه الشديد وانتصاره لعبده ومنعه له وحفظه من عدوه.

فإذا تلا كلامه فإقباله على معرفته من كلامه، حتى كأنه يراه ويشاهده في كلامه فهو كما قال بعض السلف: «لقد تجلى الله لعباده في كلامه»[1] فهو في هذه الحال مقبل على ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه.

فإذا ركع فإقباله على عظمته وجلاله وعزه؛ ولهذا شرع له أن يقول: سبحان ربي العظيم.

فإذا رفع رأسه من الركوع فإقباله على حمده والثناء عليه وتمجيده وعبوديته له وتفرّده بالعطاء والمنع.

فإذا سجد فإقباله على قربه والدنو منه والخضوع له والتذلل بين يديه والانكسار والتملُّق.

فإذا رفع رأسه وجثى على ركبتيه فإقباله على غناه وجوده، وكرمه وشدة حاجته إليه وتضرُّعه بين يديه والانكسار أن يغفر له ويرحمه ويعافيه ويهديه ويرزقه.

---

(١) قائل هذا هو: جعفر بن محمد الصادق كما في «قوت القلوب» (١/ ١٠٢) لأبي طالب.



فإذا جلس في التشهد فله حال آخر وإقبال آخر شبه حال الحاج في طواف الوداع، وقد استشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه، وموافاة العلائق والشواغل التي قطعها الوقوف بين يديه، وقد ذاق تألم قلبه وعذابه بها وباشر روح القُرْب، ونعيم الإقبال على الله وعاقبته وانقطاعها عنه مدة الصلاة.

ثم استشعر قلبه عودها إليه بخروجه من حمى الصلاة، فهو يحمل هَمَّ انقضاء الصلاة وفراغها ويقول: ليتها اتصلت بيوم اللقاء، ويعلم أنه ينصرف من مناجاة مَنْ كل السعادة في مناجاته، إلى مناجاة من الأذى والهمِّ والغمِّ والنكد في مناجاته، ولا يشعر بهذا وهذا إلا قلب حي معمور بذكر الله ومحبته والأنس به.



تسليم النفس

ولما كان العبد بين أمرين من ربه ﷻ:

١- **أحدهما**: حُكمٌ عليه في أحواله كلها ظاهراً وباطناً واقتضاؤه منه القيام بعبودية حكمه فإن لكل حكم عبودية تخصه، أعني الحكم الكوني القدري.

٢- **والثاني**: فعلٌ يفعله العبد عبودية لربه، وهو موجب حكمه الديني الأمري، وكلا الأمرين يوجبان تسليم النفس إليه تعالى.

ولهذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم، فإنه لما أسلم نفسه لحكم ربه الديني الأمري، ولحكمه الكوني القدري بقيامه بعبوديته فيه لا باسترساله معه استحق اسم الإسلام، فقيل له مسلم.

صورة الصلاة

ولما اطمأن قلبه بذكره وكلامه ومحبته وعبوديته، سكن إليه وقرّت عينه به فنال الأمان بإيمانه، كان قيامه بهذين الأمرين أمراً ضرورياً له، لا حياة له، ولا فلاح ولا سعادة إلا بهما.

ولما كان ما بُلي به من النفس الأمّارة والهوى المقتضي أو الطباع المطالبة، والشيطان المغوي، يقتضي منه إضاعة حظه من ذلك أو نقصانه اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن شرع له الصلاة مخلفة عليه ما ضاع منه، رادة عليه ما ذهب، مجددة له ما أخلق من إيمانه، وجعلت صورتها على صورة أفعاله خشوعاً وخضوعاً وانقياداً وتسليماً، وأعطى كل جارحة من الجوارح حظها من العبودية، وجعل ثمرتها وروحها إقباله على ربه فيها بكليته، وجعل ثوابها وجزاءها القرب منه ونيل كرامته في الدنيا والآخرة، وجعل منزلتها ومحلها الدخول على الله -تبارك وتعالى-، والتزيُّن للعرض عليه؛ تذكيراً بالعرض الأكبر عليه يوم اللقاء.

قرة العين

وكما أن الصوم ثمرته تطهير النفس، وثمرة الزكاة تطهير المال، وثمرة الحج وجوب المغفرة، وثمرة الجهاد تسليم النفس التي اشتراها سبحانه من العباد، وجعل الجنة ثمنها فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد، وفي الإقبال جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال؛ ولذلك لم يقل النبي ﷺ جعلت قرة عيني في الصوم ولا في الحج والعمرة، وتأمل قوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ولم يقل بالصلاة؛ إعلاماً بأن عينه إنما تقرّ بدخوله فيها، كما تقرّ عين المحب بملابسته لمحبوبه، وتقرّ عين الخائف بدخوله في محل أمنه، فقُرة العين بالدخول في الشيء أكمل وأتم من قُرة العين به قبل الدخول.

ولما جاء إلى راحة القلب من تعبه ونصبه قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[1] أي: أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح التعبان إذا وصل إلى منزله وقرّ فيه وسكن.

***

(١) هذا جزء من حديث رواه أنس وأخرجه النسائي في سننه كتاب عشرة النساء/ باب حب النساء (٨/ ٦١) وأحمد في مسنده (٣/ ١٩٩).

راحة الصلاة

وتأمّل كيف قال: أرحنا بها، ولم يقل أرحنا منها، كما يقوله المتكلف بها الذي يفعلها تكلُّفاً وغرماً، فهو لما امتلأ قلبه بغيرها وجاءت قاطعة عن أشغاله ومحبوباته، وعلم أنه لا بدّ له منها فهو قائل بلسان حاله وقاله: نصلي ونستريح من الصلاة لا بها، فهذا لون وذاك لون آخر، فالفرق بين من كانت الصلاة لجوارحه قيداً أو لقلبه سجناً، ولنفسه عائقاً، وبين من كانت الصلاة لقلبه نعيماً، ولعينه قرة ولجوارحه راحة، ولنفسه بستاناً ولذة.

١- فالأول الصلاة سجن لنفسه وتقييد لها عن التورط في مساقط الهلكات، وقد ينالون بها التكفير والثواب وينالهم من الرحمة بحسب عبوديتهم لله فيها.

٢- والقسم الآخر الصلاة بستان قلوبهم، وقرة عيونهم، ولذة نفوسهم، ورياض جوارحهم فهم فيها يتقلّبون في النعيم.

فصلاة هؤلاء توجب لهم القرب والمنزلة من الله، ويشاركون الأولين في ثوابهم ويختصون بأعلاه وبالمنزلة والقربة وهي قدر

زائد على مجرد الثواب، ولهذا يَعِدُ الملوك من أرضاهم بالأجر والتقريب، كما قال السحرة لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾[1].

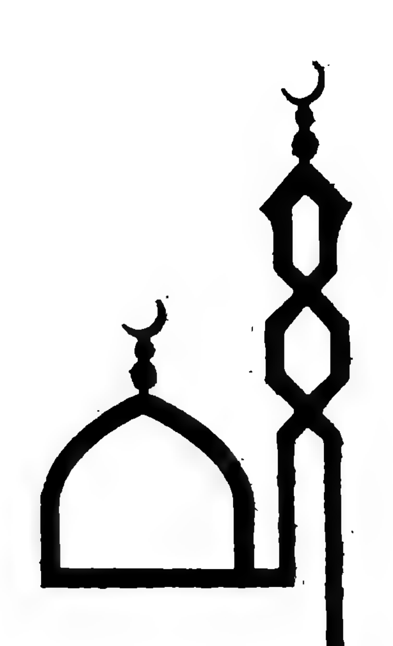
١- فالأول عبد قد دخل الدار والستر حاجب بينه وبين رب الدار فهو من وراء الستر فلذلك لم تقر عينه؛ لأنه في حجب الشهوات، وغيوم الهوى، ودخان النفس، وبخار الأماني، فالقلب عليل، والنفس مكبة على ما تهواه، طالبة لحظها العاجل.

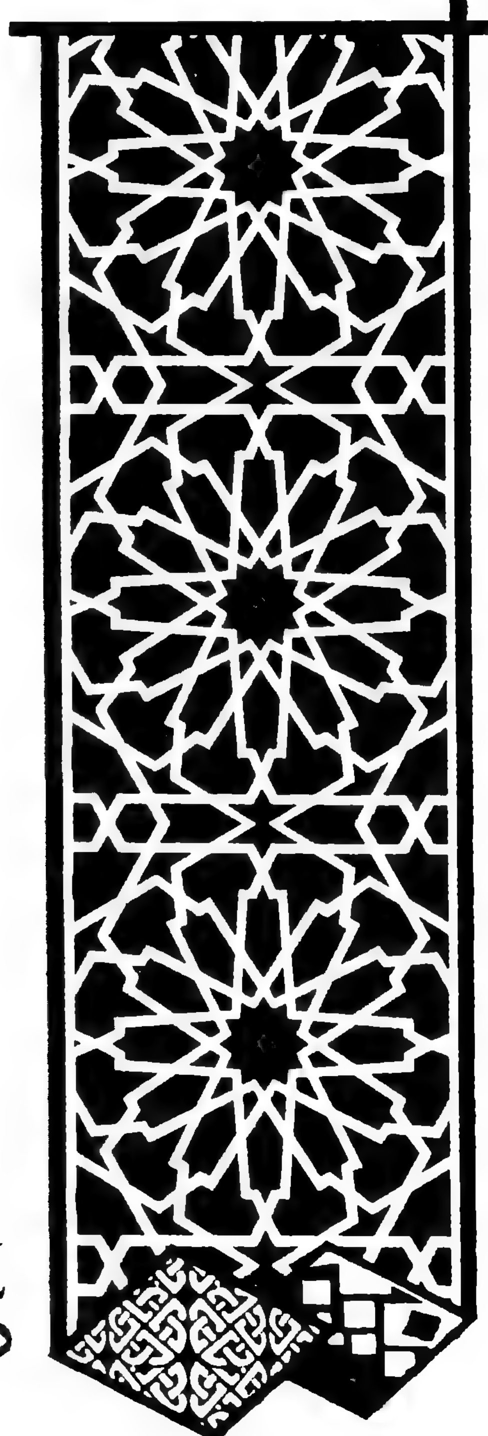
٢- والآخر قد دخل دار الملك ورفع الستر بينه وبينه، فقرَّت عينه، واطمأنت نفسه، وخشع قلبه وجوارحه، وعَبَدَ الله كأنه يراه، وتجلى له في كلامه.

فهذه إشارة ما، ونبذة يسيرةٌ جداً في ذوق الصلاة.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١١٣، ١١٤.





ذوق الصلاة عند ابن القيم رحمه الله

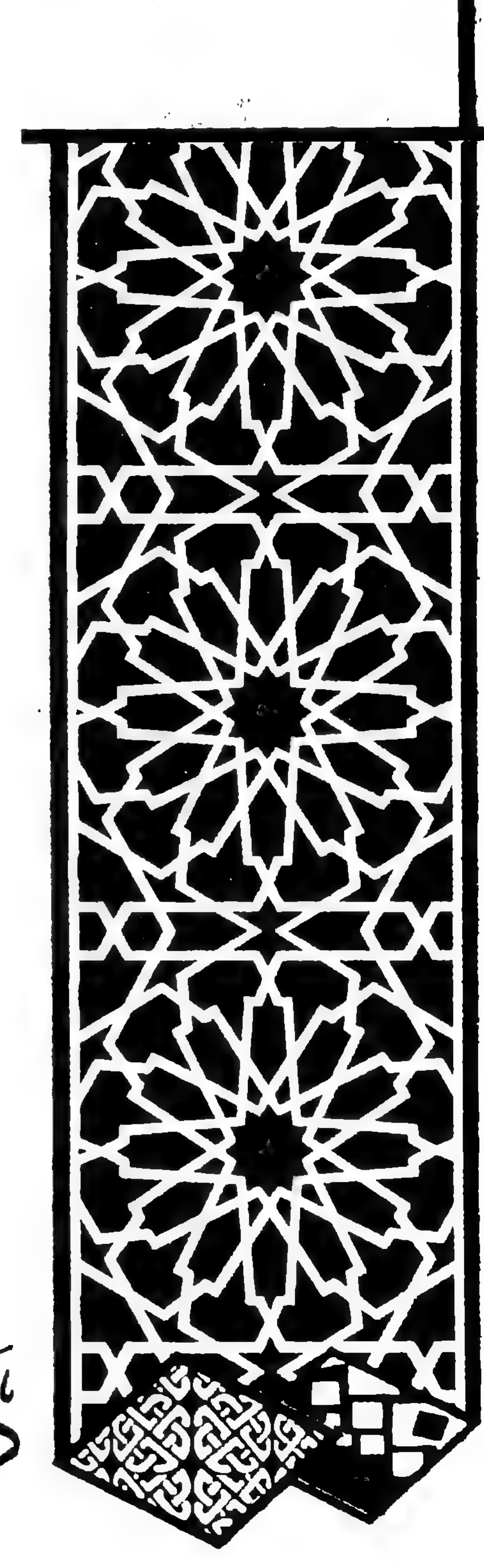


قال ابن القيم رحمه الله

عند قوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾





ذوق الصلاة عند ابن القيم ﵀

إقامة الصلاة

فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة، لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً، بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً، وكلما قلَّ خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة بدنه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقية العبودية، والله سبحانه قد قال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[1]. وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[3]، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[4]. وقال: ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[5]، وقال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[6]، وقال لموسى :

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيمو الصلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر ﷺ: «الحاج قليل، والركب كثير»[2].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٤.

(٢) ورد من قول شريح عند عبدالرزاق (٥/ ١٩).



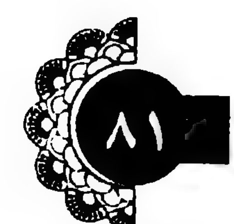
أقسام المصلين

فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويح تحلة القسم، ويقولون: يكفينا أدنى ما يقع عليه الاسم، وليتنا نأتي به، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم، فتعرضها على الرب -جل جلاله- بمنزلة الهدايا التي يتقرّب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم، فليس مَن عَمِدَ إلى أفضل ما يقدر عليه، فيزينه ويحسنه ما استطاع، ثم يتقرب به إلى مَن يرجوه ويخافه، كَمَنْ يعمد إلى أسقط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع، وليس من كانت الصلاة ربيعاً لقلبه وحياة له، وراحة وقرة لعينه، وجلاء لحزنه، وذهاباً لهمه وغمه، ومفزعاً إليه في نوائبه ونوازله، كمن هي سُحْتٌ لقلبه، وقيْدٌ لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه، فهي كبيرة على هذا، وقرة عين وراحة لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1]. فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه ووسعه في إقامتها، وإتمامها على قدر رغبته في الله.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.



قدر الصلاة

قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيى: إنما حظُّهُمْ من الإسلام على قدر حظهم في الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة. فاعرف نفسك يا عبدالله، احذر أن تلقى الله ﷿، ولا قَدْرَ للإسلام عندك، فإن قَدْرَ الإسلام في قلبك كقَدْرِ الصلاة في قلبك[1].

وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مُخبتٍ له خاشع له قريبٍ منه سليمٍ من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجلالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب -سبحانه- بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همه على الله، وقرّت عينه به، وأحسّ بقربه من الله قرباً لا نظير له، ففرغ قلبه له، وأقبل عليه بكليته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه، فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً، فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الإقبال الأول.

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٥٤).

استفتاح الصلاة

وههنا أمر عجيب يحصل لمن تفقّه قلبه في معاني الأسماء والصفات وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعاً من صلاته ومحلاً منها.

فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الرب -تبارك وتعالى- شاهد بقلب قيوميته.

وإذا قال: الله أكبر، شاهد كبرياءه.

وإذا قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك ولا إله غيرك»[1]، شاهد بقلبه ربّاً منزّهاً عن كل عيب، سالماً من كل نقص، محموداً بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه، فلا يُذكر على قليل إلا كثره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا على آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا رَدَّهُ خاسئاً داحراً. وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان هذا شأن اسمه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٩٩) (٥٢)، كتاب الصلاة/ باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة.

الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المسمى أعلى وأجلّ.

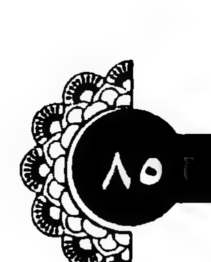
و«تعالى جدُّه»، أي: ارتفعت عظمته، وجلّت فوق كل عظمة، وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في مُلكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[1]، فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها، وغير المعطل لحقائقها.

* * *

(١) سورة الجن، الآية: ٣.

الاستعاذة

فإذا قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، ويباعده عن قربه، ليكون أسوأ حالاً.



الحمد لله رب العالمين

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقف هنية يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله: «حمدني عبدي»[1]، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ انتظر الجواب بقوله: «أثنى عليَّ عبدي»، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «يمجّدني عبدي». فيا لذة قلبه وقرة عينه وسرور نفسه بقول ربه: «عبدي» ثلاث مرات، فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربها وفاطرها ومعبودها: «حمدني عبدي، وأثنى عليَّ عبدي، ومجّدني عبدي».

ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي: الله، والرب، والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله -تبارك وتعالى- إلهاً معبوداً موجوداً مخوفاً، لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) هذا وما يليه جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٣٩) كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، والموطأ ١/ ٨٤ - ٨٥ في الصلاة/ باب القراءة خلف الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة، وأبو داود (٨٢١) كتاب الصلاة/ باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، والترمذي (٢٩٥٤) في تفسير القرآن/ ومن سورة فاتحة الكتاب، والنسائي ٢/ ١٣٥ و١٣٦ في الافتتاح/ باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب.

بِحَمْدِهِۦ﴾[1]. و﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2]. وكذلك خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الجن والإنس والطير والوحش والجنة والنار، وكذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وألزم العباد الأمر والنهي، وشاهد من ذكر اسمه: (ربِّ العالمين) قيوماً قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه، وتفرّد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[3]، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقّب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدّل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدّر المقادير، ويوقت لها المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها قائماً بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.



الرحمن الرحيم

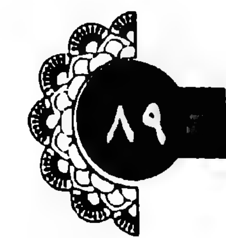
ثم يشهد عند ذكر اسم «الرحمن» جل جلاله رباً محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحبباً إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحّدين من أهل معصيته وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة، وما في حشو مخلوقاته من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده، كما أن العبودية هي السبب المتصل به منهم، فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأَهَّلَهُ لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه، وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به.

مالك يوم الدين

فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكاً قاهراً، قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً، لعزته تعنو الوجوه وتسجد، وإذا لم يعطل حقيقة صفة الملك أطلعته على شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لملكه وجحد له، فإنَّ المَلِكَ الحقَّ التامَّ المُلْكُ: لا يكون إلا حياً قيوماً سمعياً بصيراً مدبّراً قادراً متكلماً آمراً ناهياً، مستوياً على سرير مملكته، يرسل رسله إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيرضى على من يستحق الرضى، ويُثيبه ويكرمه ويدنيه، ويغضب على من يستحق الغضب، ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويقرّب من يشاء، ويقصي من يشاء، له دار عذاب، وهي النار، وله دار سعادة عظيمة، وهي الجنة، فمن أبطل شيئاً من ذلك، أو جحده أو أنكر حقيقته، فقد قدح في ملكه -سبحانه وتعالى- ونفى عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره، فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلي مجد الرب تعالى في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.



إياك نعبد وإياك نستعين

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففيها سرُّ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجلِّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانتهُ أجلُّ الوسائل، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مئة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في أربعة، وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور. وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيها في المفصّل، وجمع معانيها في الفاتحة، وجمع معانيها في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما:

١- توحيد الربوبية.

٢- وتوحيد الإلهية.

وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه: الله، والرب، والرحمن، مطابقاً لأجلِّ المطالب من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المتفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

اهدنا الصراط المستقيم

ثم يشهد الداعي بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها ألبتة، فإنه محتاج إليه في كل نَفَسٍ وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء، لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل، وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه له على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

***

أمور الهداية

ولما كان العبد مفتقراً في كُلٍّ إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من:

١- أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها.

٢- وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها.

٣- أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى.

٤- وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

٥- وأمور هو خالٍ عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها.

٦- وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية.

٧- وأمور قد هدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها.

إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فَرَضَ[1] الله سبحانه عليه أن

(١) جواب «لما» السابق أول الفقرة.

يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة.

ثم بيّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون «المغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون «الضالين» وهم الذين عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول على الله في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المنعم عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علماً وعملاً.





التأمـــين

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله، وعبودية لليدين، وشعار الانتقال من ركن إلى ركن.

ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده، وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب -جل جلاله-، ولهذا نهى عن قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض، ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما.



الركـــوع

فشرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنه سبحانه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته، فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق «سبحان ربي العظيم» فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعيَّن المُبلغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، قال: «**اجعلوها في رُكوعكم**»[1] وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمداً، وأوجب سجود السهو على من سها عنها، وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث والسنة، والأمر بذلك لا يقصر عن الأمر بالصلاة عليه ﷺ في التشهُّد الأخير، ووجوبه لا يقصر عن وجوب مباشرة المصلي بالجبهة واليدين، وبالجملة: فَسرُّ الركوع تعظيم الرب جل جلاله بالقلب والقالب والقول؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أما الركوع فعظّموا فيه الرب**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٩) كتاب الصلاة/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود.

الاعتدال من الركوع

ثم يرفع رأسه عائداً إلى أكمل هيئاته، وجعل شعار هذا الركن حمداً لله والثناء عليه وتمجيده، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابةٍ، ثم شفع بقوله: «ربنا ولك الحمد، ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»، ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: «ربنا ولك الحمد» فإنه قد ندب الأمر بها في «الصحيحين» وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما، فإن قوله: «ربنا» متضمن في المعنى أنت الرب والملك القيوم الذي بيديه أزمة الأمور، وإليه مرجعها، فعطف على هذا المعنى المفهوم من قوله: «ربنا» على قوله «ولك الحمد» فتضمن ذلك معنى قول الموحد: «له الملك وله الحمد».

ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدراً وصفة، فقال: «ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»، أي: قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب -تبارك وتعالى- بعد ذلك مما يشاؤه، فحمده قد ملأ كل موجود، وملأ ما

سيوجد، فهذا أحسن التقديرين، وقيل: ما شئت من شيء وراء العالم، فيكون قوله: «بعد» للزمان على الأول والمكان على الثاني، ثم أتبع ذلك بقوله: «أهل الثناء والمجد» فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة من الحمد والثناء والمجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «أحق ما قال العبد» تقريراً لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد، ثم أتبع ذلك بالاعتراف بالعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد، ثم عقب ذلك بقوله: «لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما مَنعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[1]. وكان يقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضاً، فيقوله في هذين الموضعين اعترافاً بتوحيده، وأن النعم كلها منه، وهذا يتضمن أموراً:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطى لم يطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع لم يطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يدني من كرامته جدود بني آدم وحظوظهم من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده التقرب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧١) (١٩٤) كتاب الصلاة/ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها وفي تمام وفي (٤٧٧) في الصلاة/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. والنسائي في سننه ٢/ ١٩ في الافتتاح/ باب ما يقوله في قيامه.

ثم ختم ذلك بقوله: «اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[1]، كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح كما كان يختم الصلاة بالاستغفار، وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء: من حمده وتمجيده والثناء عليه والاعتراف له بالعبودية والتوحيد والتنصل إليه من الذنوب والخطايا، فهو ذكر مقصود في ركن مقصود ليس بدون الركوع والسجود.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٦) (٢٠٤) في الصلاة: باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.



السجـــود

ثم يكبّر ويخرّ لله ساجداً غير رافع يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود كما ينحط الوجه، فهما تنحطان لعبوديتهما، فأغنى ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود؛ لأنهما يرفعان معه كما يوضعان معه، وشرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية.

والسجود سر الصلاة وركنها الأعظم وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج ومحل الدخول على الله وزيارته وما قبله كالمقدمات له.

ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله؛ ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة.

أصل الإنسان

ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض، كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو ترك طبعه ودواعي نفسه لتكبر وأشر، وخرج عن أصله الذي خُلِق منه، وَلَوَثَبَ على حقِّ ربه من الكبرياء والعظمة، فنازعه إياهما، فأُمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره، وخشوعاً له وتذللاً بين يديه، وانكساراً له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله.

فيتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه، وهو الوجه فيه وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى وخشوعاً له وتذللاً لعظمته واستكانة لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، ورده إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أُمُّهُ وأبوه وأصله وفصله، فضمّته حياً على ظهرها، وميتاً في بطنها، وجُعلت له طهراً ومسجداً، فأُمِر بالسجود؛ إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر

الأعضاء، فيعفّر وجهه في التراب؛ استكانة وتواضعاً وخضوعاً وإلقاءً باليدين.

وقال مسروق لسعيد بن جبير: يا سعيد، ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفّر وجوهنا في هذا التراب له[1].

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٢٠٦٥).



سنن السجود

وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قصداً، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين «(١)».

ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، فهذا فرض أمر الله به ورسوله، وبلغه الرسول لأمته.

ومن كماله الواجب أو المستحب: مباشرة مصلاه بأديم وجهه، واعتماده على الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه وارتفاع أسافله على أعاليه، فهذا من تمام السجود.

ومن كماله: أن يكون على هيئة يأخذ كل عضو من البدن بحظه من الخضوع، فيُقِلُّ بطنه عن فخذيه، وفخذيه عن ساقيه، ويجافي عضديه عن جنبيه، ولا يفرشهما على الأرض ليستقل كل عضو منه بالعبودية.

(١) أخرجه البخاري في جامعه (٢/ ٢٤٦) كتاب صفة الصلاة/ باب السجود على الأنف في الطين، وباب من لم يمسح جبهته وأنفه حتى صلّى، ومسلم في صحيحه (١١٦٧) كتاب الصيام/ باب فضل ليلة القدر، وأبو داود في سننه (٨٩٤) كتاب الصلاة/ باب السجود على الأنف والجبهة و(٩١١) باب السجود على الأنف، والنسائي في سننه (٢/ ٢٠٨ و٢٠٩) في الافتتاح/ باب السجود على الجبين.

ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجداً لله اعتزل ناحية يبكي ويقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار[1].

ولذلك أثنى الله سبحانه على الذين يخرُّون سجداً عند سماع كلامه، وذَمَّ من لا يقع ساجداً عنده؛ ولذلك كان قول من أوجبه قوياً في الدليل، ولما علمت السحرةُ صدقَ موسى وكذبَ فرعون، خرّوا سجداً لربهم، فكانت تلك السجدة أول سعادتهم وغفران ما أفنوا فيه أعمارهم من السحر؛ ولذلك أخبر سبحانه عن سجود جميع المخلوقات له فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) كتاب الإيمان/ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

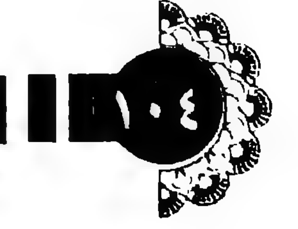
(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.



فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود له، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) ﴾[1].

***

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.



تكرار السجود

ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان، وقربه من الله بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرق العبودية، متمضنة لأقسامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السجود أفضل أركانها الفعلية، وسرها التي شرعت لأجله، وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «سبحان ربي الأعلى» فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم يرد عن النبي ﷺ أمره في السجود بغيره حيث قال: «اجعلوها في سجودكم»[1] ومن تركه عمداً فصلاته باطلة عند كثير من العلماء، منهم الإمام أحمد وغيره؛ لأنه لم يفعل ما أمر به. وكان وصف الرب بالعلو في هذه الحال في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط إلى السفل على وجهه، فذكر علو ربه في حال سفوله، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزَّه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) وصححه ابن حبان والحاكم.



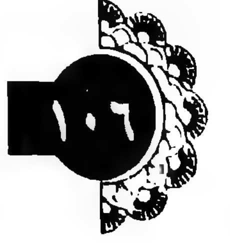
الجلوس بين السجدتين

ثم لما شرع السجود بوصف التكرار، لم يكن بد من الفصل بين السجدتين، ففصل بينهما بركن مقصود، شرع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق[1]، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة ودفع شر الدنيا والآخرة، فالرحمة تُحَصِّلُ الخير، والمغفرة تقي الشر، والهداية توصل إلى هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قوام البدن من الطعام والشراب، وما به قوام الروح والقلب من العلم والإيمان، وجعل جلوس الفصل محلاً لهذا الدعاء لما تقدمه من حمد الله والثناء عليه والخضوع له، فكان هذا وسيلة للداعي ومقدمة بين يدي حاجته.

فهذا الركن مقصود والدعاء فيه مقصود، فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة، فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد، ثم أتى بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه،

---

(١) هذه إشارة إلى ما أخرجه أبو داود في سننه (٨٥٠) كتاب الصلاة/ باب الدعاء بين السجدتين، والترمذي في جامعه (٢٨٤) كتاب الصلاة/ باب ما يقول بين السجدتين، وابن ماجه (٨٩٨) في سننه كتاب إقامة الصلاة/ باب ما يقول بين السجدتين، وحَسَّنَ إسناده النووي في «الأذكار».



ثم عاد إلى الحمد والثناء، ثم كمَّل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة، بقي سؤال حاجته واعتذاره وتنصُّله، فشرع له أن يتمثل في الخدمة، فيقصد فعل العبد الذليل جاثياً على ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده راغباً راهباً معتذراً إليه مستعدياً إليه على نفسه الأمّارة بالسوء، ثم شرع له تكرار هذه العبودية مرة بعد مرة إلى إتمام الأربع، كما شرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة؛ لأنه أبلغ في حصول المقصود، وأدعى إلى الاستكانة والخضوع.

جلسة التشهد

فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها وتكبيرها، شرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشع المتذلل المستكين جاثياً على ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها عوضاً عن تحية المخلوق للمخلوق، إذا واجهه، أو دخل عليه، فإن الناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يتحببون بها إلى قلوبهم، فبعضهم يقول: أنعم صباحاً، وبعضهم يقول: لك البقاء والنعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلم، فتحياتهم بينهم تتضمن ما يحبه المحيا من الأقوال والأفعال، والمشركون يحيون أصنامهم.

قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسّحون بأصنامهم، ويقولون: لك الحياة الدائمة[1]، فلما جاء الإسلام أمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله.

---

(١) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص٢١٩-العربي).

التحيــــات

فالتحيات هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات من كل ما سواه، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أَحَدٌ هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه، وكذلك قوله: «والصلوات» فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله ﷻ، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به، وكذلك قوله: «والطيبات» فهي صفة الموصوف المحذوف أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات، والأسماء لله وحده، فهو طيب، وكلامه طيب، وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، فكله طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، وفعله طيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، صادرة عنه، ومنتهية إليه. قال النبي ﷺ: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً»[1]. وفي حديث رُقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره: «أنت ربُّ الطيِّبين»[2]. ولا يجاوره من عباده إلا الطيبون كما

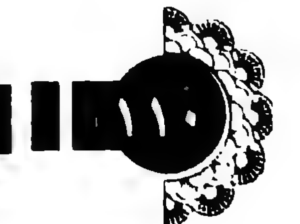
(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨٩٢) كتاب الطب/ باب كيف الرقى وأحمد ٦/ ٢١.

يقال لأهل الجنة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[1].

وقد حكم سبحانه بشرعه وقدره أن الطيبات للطيبين، فإذا كان هو سبحانه الطيب على الإطلاق، فالكلمات، الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات كلها له سبحانه، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيبة إلا له.

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.



السلام على النبي ﷺ وعلى عباد الله الصالحين

ولما كان السلام من أنواع التحية، وكان المسلم داعياً لمن يحييِّه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطلب منه السلام لا يطلب له السلام فإنه السلام ومنه السلام شرع أن يُطلب منه السلام لعباده الذين اختصّهم بعبوديته، وارتضاهم لنفسه، وشرع أن يبدأ بأكرمهم عليه، وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة في هذه التحية، ثم ختمت هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام.

فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير والتحميد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين تشبيهاً لها بجلسة الفصل بين السجدتين، فهي بين الركعتين الأولين والأخريين كالجلوس بين السجدتين وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين الأخريين بنشاط وقوة بخلاف ما إذا والى بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثنى مثنى، وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

الصلاة على النبي ﷺ

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمته هذه النعمة على يده وبسفارته، فكأن المصلي توسّل إلى الله سبحانه بعبوديته، ثم بالثناء عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل له: تخيّر من الدعاء أحبه إليك، فذاك الحق الذي عليك، وهذا الحق الذي لك، وشرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه؛ تكميلاً لقرة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يصلي عليه وعلى آله كما صلَّى على أبيه إبراهيم وآله.

والأنبياء كلهم بعد إبراهيم من آله؛ لذلك كان المطلوب لرسول ﷺ صلاة مثل الصلاة على إبراهيم، وعلى جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين؛ فلهذا كانت هذه الصلاة أكمل ما يُصلى على رسول الله ﷺ بها وأفضل.

الاستعاذة من مجامع الشر

فإذا أتى بها المصلي أمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشر كله، فإن الشر إما عذاب الآخرة وإما سببه، فليس الشر إلا العذاب وأسبابه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه: الفتنة، وهي نوعان: كبرى وصغرى، فالكبرى فتنة الدجال وفتنة الممات، والصغرى فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال، فإن المفتون بهما لا يتداركهما.

الدعاء قبل السلام

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام، وأنفع للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي ﷺ كلها، كانت في الصلاة من أولها إلى آخرها، فكان يدعو في الاستفتاح أنواعاً من الدعاء، وفي الركوع، وبعد رفع رأسه منه، وفي السجود، وبين السجدتين، وفي التشهُّد قبل التسليم، وعلَّم الصِّدِّيق دعاءً يدعو به في صلاته، وعلَّمَ الحسن بن علي دعاءً يدعو به في قنوت الوتر، وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع، وسر ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤاله في هذه الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يدي ربه.

وقد سئل النبي ﷺ أي الدعاء أسمع؟ فقال: «جوف الليل وأدبار الصلوات المكتوبة»[1] ودبر الصلاة جزؤها الأخير كدبر الحيوان ودبر الحائط، وقد يراد بدبرها ما بعد انقضائها بقرينة تدل عليه كقوله: «تُسبحون الله وتحمدونه وتكبرونه دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» فهنا دبرها بعد الفراغ منها، وهذا نظير انقضاء الأجل،

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣٤٩٤)، كتاب الدعوات/ باب رقم ٨٠ وحسنه.

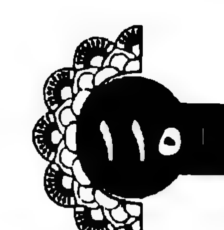
فإنه يراد به آخر المدَّة، ولما يفرغ ويراد به فراغها وانتهاؤها.

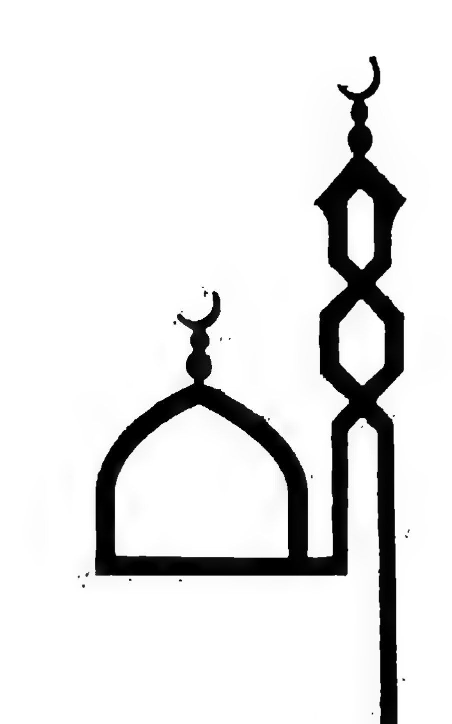
ثم ختمت بالتسليم، وجعل تحليلاً لها يخرج به المصلي منها كما يخرج بتحليل الحج منه، وجعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه، فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام.

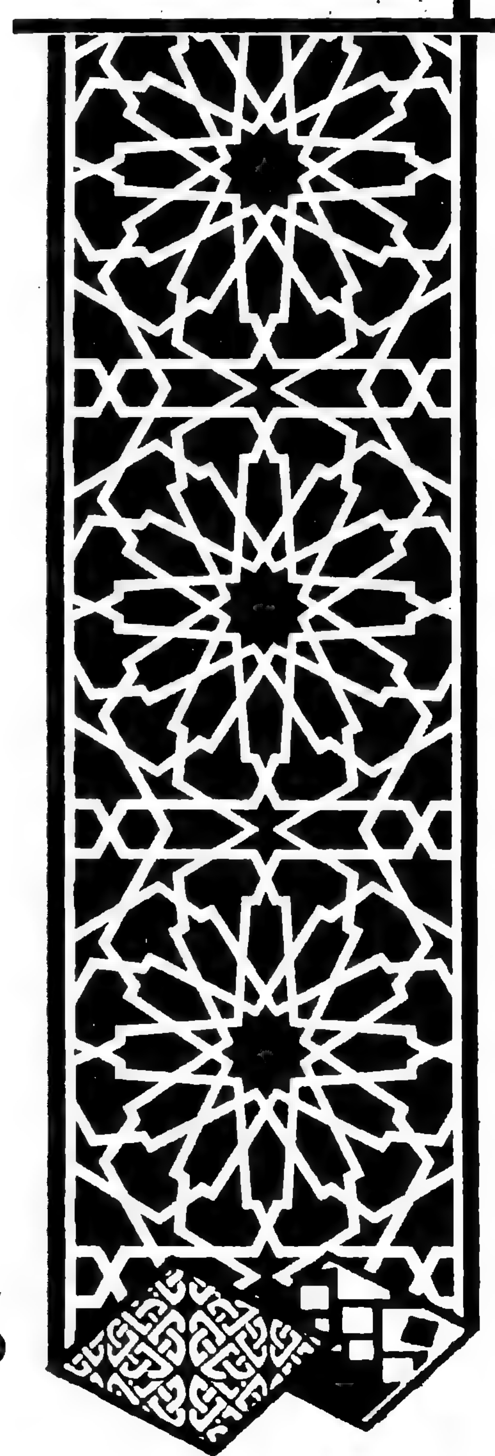
وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مصلٍّ، وإن كان منفرداً، فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة كما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريماً لها، فتحريمها تكبير الرب تعالى الجامع لإثبات كل كماله له، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيآتها.

فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون: «الله أكبر»، فلا أحسن من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد؟ ومن هذا التحليل المتضمن للإحسان إلى إخوانه المؤمنين. فافتتحت بالإخلاص، وخُتِمت بالإحسان. اهـ.

* * *



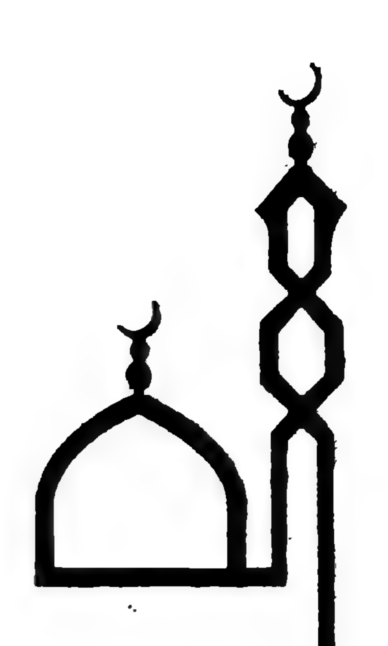


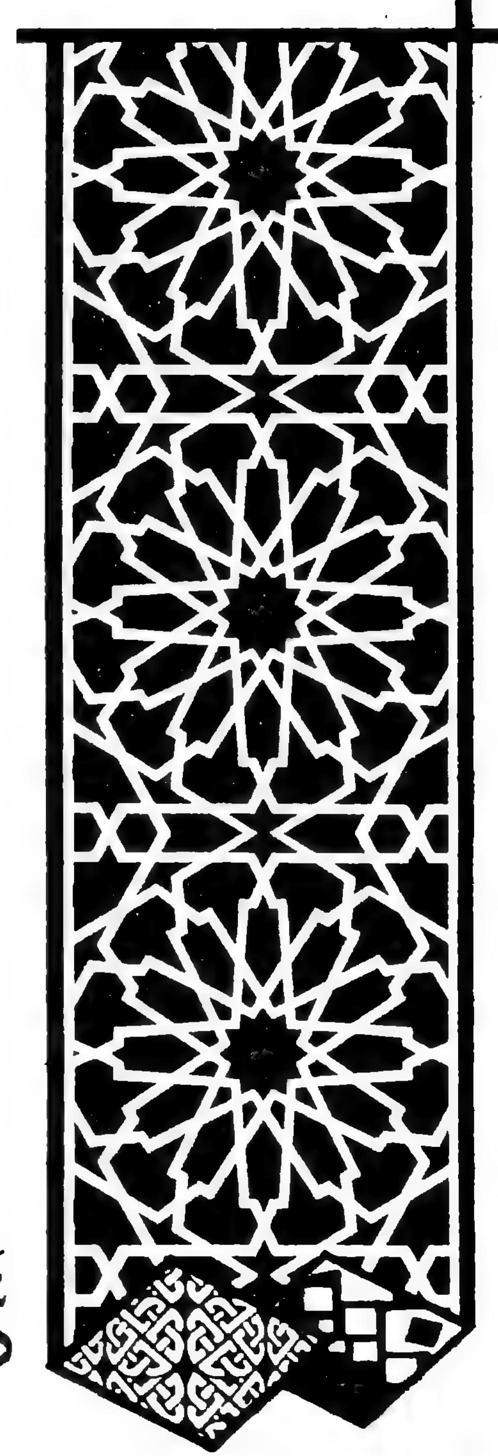
ذوق الصلاة عند ابن القيم



قال ابن القيم رحمه الله







ذوق الصلاة عند ابن القيم رحمه الله

فالصلاة قرة عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيها من مناجاة من لا تقرُّ العيون ولا تطمئن القلوب ولا تسكن النفوس إلا إليه، والتنعُّم بذكره والتذلل والخضوع له والقرب منه، ولا سيما في حال السجود، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها.

ومن هذا قول النبي ﷺ: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[1]، فاعلم بذلك أن راحته في الصلاة، كما أخبر أن قرة عينه فيها. فأين هذا من قول القائل: نصلي ونستريح من الصلاة؟

فالمحب راحته وقرة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر، حتى يتخلّص منها، وأحب الصلاة إليه أعجلها وأسرعها، فإنه ليس له قرة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، والعبد إذا قرّت عينه بشيء واستراح قلبه به فأشق ما عليه مفارقته، والمتكلف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة وأكره ما إليه طولها، مع تفرغه وصحته وعدم اشتغاله.

ومما ينبغي أن يعلم أن الصلاة التي تقرُّ بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٥).

المشهد الأول: الإخلاص

وهو أن يكون الحامل عليها والداعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبته له، وطلب مرضاته، والقرب منه، والتودد إليه، وامتثال أمره، بحيث لا يكون الباعث له عليها حظاً من حظوظ الدنيا ألبتة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى، محبة له، وخوفاً من عذابه، ورجاء لمغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح

وهو أن يفرغ قلبه لله فيها، ويستفرغ جهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها، ظاهراً وباطناً. فإن الصلاة لها ظاهر وباطن، فظاهرها: الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها: الخشوع والمراقبة، وتفريغ القلب لله، والإقبال بكليته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره، فهذا بمنزلة الروح لها، والأفعال بمنزلة البدن، فإذا خلت من الروح كانت كبدن لا روح فيه.

أفلا يستحي العبد أن يواجه سيده بمثل ذلك؟! ولهذا تُلَفُّ بالثوب الخَلِقِ ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيّعك الله

كما ضيّعتني، والصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان، كنور الشمس حتى تعرض على الله، فيرضاها ويقبلها وتقول: حفظك الله كما حفظتني[1].

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء

وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي ﷺ ويصلي كما كان يصلي، ويُعْرِض عما أحدث الناس في الصلاة من الزيادة والنقصان والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله ﷺ شيء منها ولا عن أحد من أصحابه، ولا يقف عند أقوال المُرَخِّصين الذين يقفون مع أقل ما يعتقدون وجوبه، ويكون غيرهم قد نازعهم في ذلك وأوجب ما أسقطوه. ولعل الأحاديث الثابتة والسنة النبوية من جانبه، ولا يلتفتون إلى ذلك ويقولون: نحن مقلدون لمذهب فلان. وهذا لا يخلص عند الله ولا يكون عذراً لمن تخلف عما علمه من السنة عنده، فإن الله سبحانه إنما أمر بطاعة رسوله ﷺ واتباعه وحده، ولم يأمر باتباع غيره، وإنما يطاع غيره إذا أمر بما أمر به الرسول ﷺ، وكل أحد سوى الرسول ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك...

(١) ورد هذا المعنى من حديث أنس بن مالك وعبادة بن الصامت، بأسانيد ضعيفة عند الطبراني وغيره.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان

وهو مشهد المراقبة وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته، مستويات على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتُعرَض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيوماً حياً سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً آمراً ناهياً يحب ويبغض ويرضى ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له، ويقطع الوساوس وحديث النفس، ويجمع القلب والهم على الله. فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

المشهد الخامس: مشهد المنة

وهو أن يشهد أن المنة لله سبحانه؛ كونه أقامه في هذا المقام وأَهَّلهُ له، ووفَّقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته. فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك كما كان الصحابة يَحْدُون بين يدي النبي ﷺ فيقولون:

والله لــولا الله ما اهتدينـــــا
ولا تصــدقنـــا ولا صــلينـــا

قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

فالله سبحانه هو الذي جعل المسلم مسلماً والمصلي مصلياً كما قال الخليل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[2]، وقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾[3].

فالمنة لله وحده في أن جعل عبده قائماً بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[4]، وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٥٣.

﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

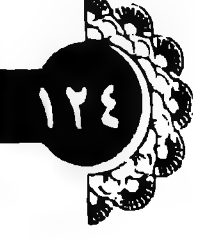
وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلما كان العبد أعظم توحيداً كان حظه من هذا المشهد أتم، وفيه من الفوائد:

أن يحول بين القلب وبين العجب بالعمل ورؤيته، فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المانُّ به الموفق له الهادي إليه شغله شهود ذلك عن رؤيته والإعجاب به، وأن يصول به على الناس فيُرفع من قلبه فلا يعجب به، ومن لسانه فلا يمنُّ به ولا يتكثَّر به، وهذا شأن العمل المرفوع.

ومن فوائده أنه يضيف الحمد إلى وليه ومستحقه فلا يشهد لنفسه حمداً، بل يشهده كله لله كما يشهد النعمة كلها منه، والفضل كله له، والخير كله في يديه.

وهذه من تمام التوحيد، فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده، فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهداً، وإذا صار لقلبه مشهداً أثمر له من المحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا ألبتة. وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدوداً وطريق

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.



الوصول إليه عنه مسدوداً، بل هو كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

المشهد السادس: مشهد التقصير

وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه فهو مقصّر وحق الله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يُقابَل به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأن عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بها، وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالإجلال لهم والتعظيم والاحترام والتوقير والحياء والمهابة والخشية والنصح بحيث يُفَرِّغُون قلوبَهم وجوارحَهم لهم، فمالك الملوك ورب السماوات والأرض أولى أن يعامل بذلك بل بأضعاف ذلك، وإذا شهد العبد من نفسه أنه لم يُوَفِّ ربه في عبوديته حقه ولا قريباً من حقه عَلِمَ تقصيره ولم يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه إلى أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثواباً وهو لو وفَّاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية، فإن

(١) سورة الحجر، الآية: ٣.



عمل العبد وخدمته لسيده مستحق عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجرة على عمله وخدمته لعدّه الناس أحمق وأخرق.

هذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة وهو عبدالله ومملوكه على الحقيقة من كل وجه، فعمله وخدمته مستحق عليه بحكم كونه عبده، فإذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضل ومنة وإحسان إليه لا يستحقه العبد عليه، ومن ههنا يفهم معنى قول النبي ﷺ: «لن يدخل أحدكم منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»[1].

---

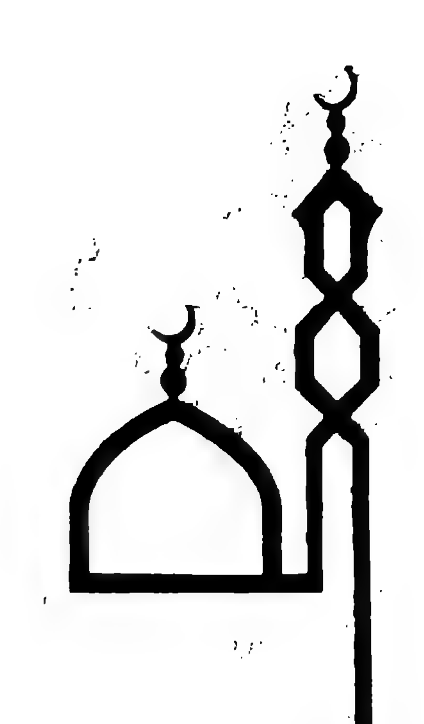
(١) متفق عليه من حديث عائشة، وله شواهد أخرى.

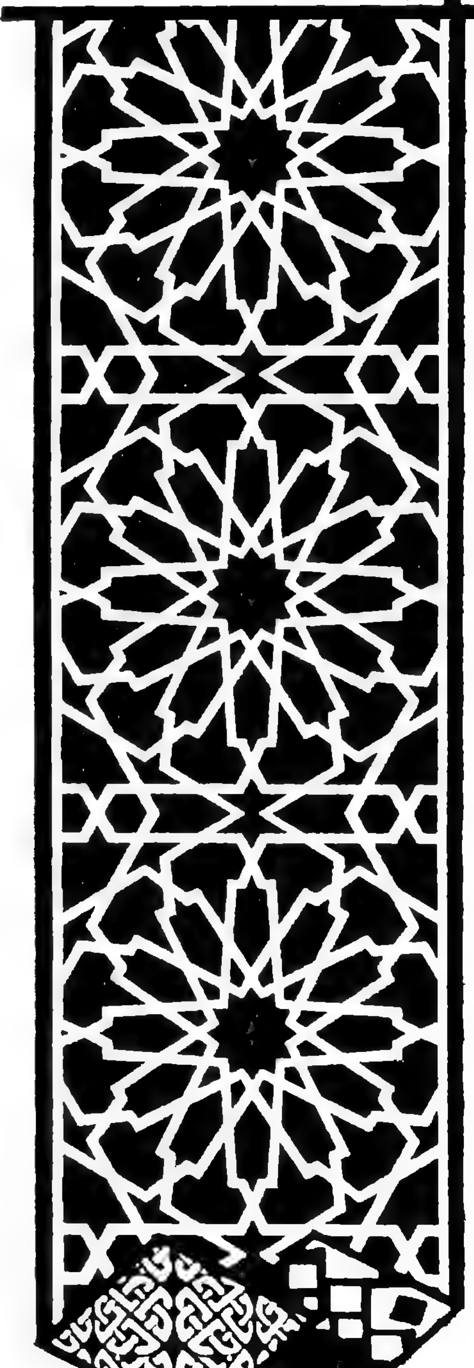


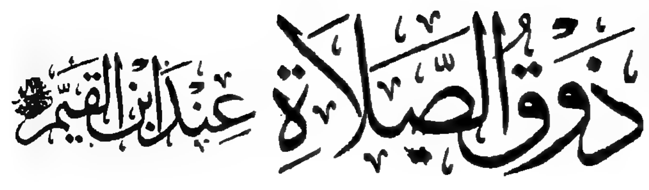
الرسالة الرابعة

قال ابن القيم رحمه الله








ذوق الصلاة عند ابن القيم

ويكفي العاقلَ البصيرَ، الحيَّ القلبِ، فِكْرُهُ في فرع واحد من فروع الأمر والنهي، وهو «الصلاة»، وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح، والبدن والقوى، التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغايتها المحمودة، بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة، وما فيها من المعارف الإلهية، والحكم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء على الله بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخلقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم، وما في مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة: من تطهير الأعضاء، والثياب، والمكان، وأخذ الزينة، واستقبال بيته الذي جعله إماماً للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة على أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفات إلى ما سواه والإقبال على غيره، فيقوم بقلبه بالوقوف بين يدي عظيم جليل كبير، أكبر من كل شيء، وأجل من كل شيء، وأعظم من كل شيء، تلاشت في كبريائه السماوات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها، عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم بما تكنُّ صدورهم، يسمع كلامهم ويرى مكانهم، ولا يخفى عليه خافية من أمرهم.



ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره، تبارك اسمه، وتعالى جده، وتفرد بالإلهية، ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثنى عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه ملكٌ سواه، حتى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم.

ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلهيته عبودية له. ثم سؤاله أفضل مسؤول وأجل مطلوب على الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم، الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطاً موصلاً لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته، بأن عرّفهم الحقَّ وجعلهم متبعين له، دون صراط أمة الغضب الذي عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتّباعه، فتضمنت تعريف الرب والطريق الموصل إليه والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات وهي العبودية، وأقرب الوسائل إليها وهي الاستغاثة، مقدماً فيها الغاية على الوسيلة والمعبود المستعان على الفعل، إيذاناً بالاختصاص، وإن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه، وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة، فيثنى عليه ويعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويدبّر الملك،

ويضل من يستحق الإضلال ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم ويجود ويعفو ويغفر ويهدي ويتوب برحمته، فلله كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد وحقائق الإيمان!

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب وشفاء الصدور ونور البصائر وحياة الأرواح، وهو كلام رب العالمين، فيحل به في ما شاء من روضات مونقات وحدائق معجبات، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذللت قطوفها تذليلاً، وسهلت لمتناولها تسهيلاً، فهو يجتني من تلك الثمار خيراً يؤمر به وشراً ينهى عنه، وحكمة وموعظة وتبصرة وتذكرة وعبرة، وتقريراً لحق، ودحضاً لباطل، وإزالة الشبهة، وجواباً عن مسألة، وإيضاحاً لمشكل، وترغيباً في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيراً من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدى، ورداً عن ردى، فينزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأي نعيم، وقرة عين، ولذة قلب، وابتهاج وسرور لا يحصل له في هذه المناجاة؟! والرب تعالى يستمع لكلامه، جارياً على لسان عبده، ويقول: حمدني عبدي، أثنى عليَّ عبدي، مجّدني عبدي.



ثم يعود إلى تكبير ربّه عز وجل، فيجدد به عهد التذكرة؛ كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته وما ينبغي أن يعامل به.

ثم يركع حانياً له ظهره؛ خضوعاً لعظمته، وتذللاً لعزته، واستكانة لجبروته، مسبّحاً له بذكر اسمه العظيم، فنزه عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن، وطأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربه فوقه يشاهده، ويرى خضوعه وذله، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال، كما قال ﷺ: «**أما الركوع فعظّموا فيه الرب**».

ثم عاد إلى حاله من القيام، حامداً لربه، مثنياً عليه بأكمل محامده وأجمعه وأعمها، مثنياً عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفاً بعبوديته، شاهداً بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحاب الجدود والأموال والحظوظ جدودهم عنه ولو عظمت.

ثم يعود إلى تكبيره، ويخرّ له ساجداً على أشرف ما فيه وهو الوجه، فعفّره في التراب؛ ذلاً بين يديه ومسكنه وانكساراً، وقد أخذ كل عضو من البدن حظه من هذا الخضوع حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، وندب له أن يسجد معه ثيابه وشعره فلا يكفه، وأن لا يكون بعضه محمولاً على بعض، وأن يباشر

التراب بجبهته، وينال ثقل وجهة المصلي، ويكون رأسه أسفل ما فيه؛ تكميلاً للخضوع والتذليل لمن له العز كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خلق إلى أن يموت لما أدى حق ربّه عليه.

ثم أمر أن يسبح ربّه الأعلى، فيذكر علوه سبحانه في حال سفوله هو، وينزّهه عن مثل هذه الحال، وأنّ من هو فوق كل شيء وعال على كل شيء، ينزّه عن السفول بكل معنى، بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلوّ. ولما كان هذا غاية ذلِّ العبد، وخضوعه وانكساره؛ كان أقرب ما يكون الرب منه في هذه الحال، فأُمر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: «**اسجد واقترب**»[1].

وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له، فينتقل من خضوع إلى خضوع أكمل وأتم منه وأرفع شأناً، وفصل بينهما بركن مقصود في نفسه، يجتهد فيه بالحمد والثناء والتمجيد، وجعل بين خضوعين: خضوع قبله، وخضوع بعده؛ وجعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك.

(١) سورة العلق، الآية: ١٩.

فتأمّل هذا الترتيب العجيب وهذا التنقُّل في مراتب العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء على الرب بأحسن أوصافه، ويستصحب في مقامه خضوعه ثناءً بما يناسب ذلك المقام ويليق به، فيذكر عظمة الرب في حال خضوعه وعلوه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن شرع في أشرف أحوال الإنسان وهي هيئة القيام التي قد انتصب فيها قائماً على أحسن هيئة، ولما كان أفضل أركانها الفعلية السجود شرع فيها بوصف التكرار، وجعل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها الوحي، فإنها بدئت بالقراءة وختمت بالسجود، وشرع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل ربه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه ويهديه ويعافيه، وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شرع تكرار الأذكار والدعوات مرة بعد مرة؛ ليستعد بالأول لتكميل ما بعده ويجبر بما يعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ داؤه نصيبه وافراً من الدواء ليقاومه، فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من اللقمة أو اللقمتين كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيراً جداً،

وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدر معين من الدواء؛ إذ أخذ منه المريض قيراطاً من ذلك لم يزل مرضه بالكلية وأزال بحسبه، فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته شرع له أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلّم على من جاء بهذا الحظ الجزيل ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلّم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهّد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علّم الأمة هذا الخير ودلّهم عليه.

ثم شرع له أن يسأل حوائجه ويدعو بها أحب ما دام بين يدي ربه مقبلاً عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة، هذا إلى ما تضمنته الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد منزلة من منازل السير إلى الله ولا مقاماً من مقامات العارفين إلا وهو في ضمن الصلاة، وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر.

الفهـــرس